النَّشِيدَة

شعر

علاء عبد الهادي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصدير

«علاء عبدالهادى» شاعر متمرد، يخرج على السياق الرسمى للمجايلة، والحداثة، والطرح الثقافى، ليضع بصمته الاستثنائية على خريطة الشعر المصرى الحداثى.

شاعر حداثى منذ خطوته الإبداعية الأولى «لكِ صفة الينابيع يكشفك العطش» ذلك الديوان الذى صدر فى طبعة محدودة عام ١٩٨٧، ولكنها كانت كافية للفت الانتباه إلى خصوصية تجربته، وتفرد جملته الشعرية، التى تأكدت شيئا فشيئا فى أعماله التالية: «حليب الرماد» و «أسفار من نبوءة الموت و«سيرة الماء» و«الرغام» و «معجم الغين» و«تداعيات فى مقام الندى» وغيرها من الدواوين، هذا عدا مسرحيته الشعرية «من حديث الدائرة»، بالإضافة إلى مداخلاته النظرية، سواء المؤلفة أو المترجمة، والتى تؤكد على عمق رؤيته، تنظيرًا وتطبيقًا.

و«مكتبة الأسرة» تقدم أحدث إصداراته الشعرية، «النشيدة»، الديوان الذى صدر فى طبعته الأولى عام ٢٠٠٣ والذى يعتبر دالاً على هذه الخصوصية وذلك التفرد.

مكتبة الأسرة

كُتبَ هذا العمل

(1996-1995)

الإهـــدَاء :

إلى مَن اصْطفقتْهُم الحَرَائِقُ
لِسَهْرَتِهَا الدَّائِمَة

(.. عَلَيْنا أنْ نقول وَعَلَيْكم أن تَتأوّلوا!)

الفرزدق

مُقامُ الحَرْفِ/ مُقامُ الحُلْم

حَدَّثنا علاء الراوية قال: بينما أنا في موسم من مواسم السّفر.. في أوّل خروج لي من أجل الرواية، إذا النّفري يكلّمُ كهلاً في استغراق -عرفتُ بُعَيدَ ذلكَ أنّه قريني- وكنتُ جفوتُه منذ سنين، بعدَ أنْ أحدثَ أموراً، وابتدعَ طرائقَ لم يسمعْ بها الأقدمون مِن قبل، ولم يتبعْ نصيحة أهل العلمِ والمعرفة: "اتّبعُوا ولا تبْتَدِعُوا، فقد كُفيتُم"، فأجهدتُ سمعي لمعرفة مايدورُ بينهما، إذا النّفريّ يقولُ للكهل: "الباطلُ يستعيرُ الألسنة ولا يوردُها موردَها كالسّهم تستعيرُه ولا تصيبُ به، رأسُ الأمر أن تعلمَ مَنْ أنتَ، خاص أم عام، فإن لم يعلم الخاصُ أنه خاصٌ هلكْ، هذه عبارتي وأنت تكتُب ُفكيفَ وأنت لا تكتب. فقيمة كلِّ امرئ حديثُ قلبه".

وَاقرَأ:

لا تصحُّ المحادثة إلا بينَ ناطق وصامت. العلمُ المستقرُّ هو الجهلُ المستقر. الجهلُ حدٌّ في العلم لأنَّ المعرفة التي ما فيها جهل هي المعرفة التي ما فيها معرفة. فاحملْ عِلمكَ في تعلمِك فإذا علمته فألق ما معك. أعدَى عدو لك إنَّما يحاول إخراجَك من الجهل لا من العلم.. لأن العالِمَ يرى عِلمَه ولا يرى المعرفة، فإنْ لم تَرَنِي وراءَ الضّدين رؤية واحدة لم تعرفني، فأوّل المشاهدة نفي الخاطر، وآخرها نفي المعرفة. ومن لايقف لم يقفْ، رأى المعلومَ ولم يرَ العلم، فاحتجبَ باليقظة كما يحتجبُ بالغفلة. أنا لايعبر عنّي إلا لسانان، لسانُ معرفةٍ آيتُه إثبات ما جاء به بلا حجة، ولسانُ علمٍ آيتُه إثبات ما جاء به بحجة. فاشهدْني في الحرفِ تشهدِ الصنعة واشهدْني في العلم تشهدِ الحكمة،واشهدْني في الاسم تشهدِ الوحدانية.

ثُمَّ اكْتُبْ:

الحرفُ لغاتٌ وتصريفٌ وتفرقة وتأليفٌ ومقطوعٌ ومبهمٌ ومعجمٌ، وأشكال وهينات، والذي أظهرَ الحرفَ في لغةٍ هو الذي صرّفه، والذي صرّفه هو الذي فرّقه، والذي فرّقه هو الذي ألّفه، و الذي ألّفه هو الذي واصلَ فيه، والذي واصلَ فيه هو الذي قطعَه، و الذي قطعه هو الذي أبْهَمَه والذي أبهمه هو الذي أعْجَمَه، و الذي أعْجَمَه هو الذي أشْكَله، والذي أشكله هو الذي هَيّأه.. ذلك المعنى هو معنى واحد، ذلك النورُ هو نور واحد، ذلك الواحد هو الواحد الأحد. الحرفُ ناري، الحرفُ قدري، الحرفُ حتمي من أمري، الحرفُ خِزانةُ سِرِّي. الحرفُ حجابٌ، وكليةُ الحرفِ حجابٌ، وفرعيّةُ الحرفِ حجاب. اخرجْ مِن بينِ الحروفِ تنجُ من السِّحر، فالحرفُ فخُّ إبليس. أما علامةُ مغفرتي في البلاء فأن أجعله سبباً لعِلم.

وَلا تَقِفْ:

في الدلالةِ، فلكلّ شيءٍ شجرٌ، وشجرُ الحروف الأسماء، فاذهبْ عن الأسماءِ تذهبْ عن المعاني. فالعبارةُ حرف، ولا حكمَ لحرفٍ. فإذا ذهبتَ عن المعاني صلَحتَ لمعرفتي. العبارةُ سترٌ ، فكيف ما ندبت إليه.. فأوائلُ الحكوماتِ أن تعرفَ بلا عبارة، لأنك إذا عرفتَ من تسمعُ منه، عرفتَ ما تسمع. وإن لمْ تشْهدْ ما لمْ ينقالْ تشتَّت بما ينقال، فإذا جاءكَ التأويلُ، فقد جاءكَ حجابي الذي لا أنظرُ إليه، ومقتي الذي لا أعطفُ عليه. فما كلّ عبدٍ يعرفُ لغتي فتخاطبه، ولا كلّ عبدٍ يفهمُ ترجمتي فتحادثه.

المعرفة بلاءُ الخلق، خصوصه وعمومه، وفي الجهل نجاةُ الخلق خصوصه وعمومه.

فإن شغلتُكَ بدلالةِ الناس عليّ فقد طردتُك. الواقفُ لا يعرفُ المجازَ، وإذا لمْ يكنْ بيني وبينك مجازٌ، لم يكنْ بيني وبينك حجابٌ، ومَنْ عرفَ الحجابَ.. أشرفَ على الكشْف. كلّ كاتبٍ يقرأ كتابتَه، وكلّ قارىءٍ يحسبُ قراءته.

فاكتبْ مَنْ أنْت،
لتعرفَ مَنْ أنْت،
فالحقُّ.. لايستعيرُ لِساناً مِنْ غَيرِه(*)

إنّهَا..

تَدَاعِيَاتُك.. فِي مُقامِ المَدَى:

* "قراءة ضالة في المواقف والمخاطبات للنفري"

فِي البَدْءِ كُنْتُ !

لمَّا تَقضَّى نهَاري،
وَانْفَتَحَ المَدَى.

هِيَ تَفاصِيلُ الطَّرَائِق.. الَّتِي..
وَطَأتْهَا أقدَامِي..
المُلوَّثَة..
بَالطَّمْي والأحْلام.

هِيَ الوَقَائِعُ..
تَسْرُدُ عَلى مَخَالِبِي الغضَّةِ..
مَا كَسَّرَتْهُ القرَائِس.

أداري رُعُونتِي،

حَيثُمَا.. أجْمَعُ الذّكْرَى

مَطراً فِي العُرُوق،

عَلّنِي أسْرِقُ مِنْ.. شُقُوق الأرْض

سَحَابَتِي الجَدِيدَة،

كَمْ فاحَ إسْرَائِي بِفضَائِحَ

أشْرَعتْهَا المُمْكِنَاتُ

فقبلتُ الأمَانة

وَتعَاطتْنِي البلاد.

تغضَّنَتْ نافِذتِي..

وَأنا أرْجِعُ البَصَرَ.. إلى غَيْمَةٍ شَارِدَة،

أفتَحُ قلبي..

بمَا دَسَّتْهُ التَّبَاريحُ..

فيَدْخُلُ قلبي غُرَابٌ،

كتَبَ نُبُوءَتَهُ..

بريشَتَيْنِ مِنْ صُرَاخ،

وَمَا تَبَقَّى فِي العُرُوق..

تَمَاهَيْتُ دَاخِلِي

مَعَ مَن استَيقَظَ فِي تَخلِيقِهِ!

مَنْ غَابَ فِي الكَوْن،

وَأفسَدَهُ الحُضُور.

وَحِينَ أكْمَلَ المَطرُ قِيَامَهُ،

حِينَ قامَ السَّرَابُ
سَقطتْ مِنْ تَحْتِي الأمْاكِنُ،

فمَكَثتُ فوْقَ التُّرَابِ
أرَتِّبُ الوَقائِعَ:

وَمَسِسْتُ هَيْئَتِي،

فشَمِلنِي الحُضُورُ بالمُبَاغَتَة.

◆ مَدَي القصيدِ.. قدِ اهْتَدَى،

فتَكَدَّرَتْ فِيهِ الضِّيَاءْ!

لمَّا تَيَمَّمْتُ المدَى،

وَمِثْلَ تَائِهَةٍ عَلى وَقتٍ يَفُورُ..

سَيَمْجُنُ.. الليْلُ الَّذِي..

قدِ ارْتَدَى نِصْفَ النَّهَار.

الأفقُ لاهَ..

كَأنَّهُ مَهْدٌ لنا،

هَذا أنا.. أمْضِي!

لِمُفْتَتَح الرَّغَام،

وَمَدَايَ يَشْبِكُ فَرْحَتِي،

بَلْ يَصْطَفِي الفِرْدَوْسَ مُتَّكَأ،

وَتَبْدَأ رِحْلَتِي،

فُتِحَتْ لنا.. الأوْهَامُ..

ذَنْبِي جَلِيسِي وَشَهْوَتِي.. لِلخُلْدِ..

تَخْسِفُ بِالحُدُودْ!

يَشُدُّنِي جَسَدِي إِلَيَّ

وَمَا مَدَدْتُ لَهُ يَدِي!

فَاحْتَكَمَ الغَرَامُ لنا، وَلِلشَّجَرِ الَّذِي..

اعْتَكَفَتْ بِهِ الأحْلامُ!

نَزَا عَلَيْهِ الطَّيِّبَانْ!
كَيمَا تُوَارَي.. طاعَةَ الْعِصْيَان.
حتَّى تَمِيلَ مَعَ الهَوَى أقْدَارُهُ،
فَالحَقُّ دَائِرَةٌ، وَعَزَّ وَفَاؤهُ،

رَفَضَا المُكُوثْ،
رَجِعَا بِأمْرِهِمَا إلى حَبِّ الكَلامْ،

يَغْوي، وَيُقْسِمُ -فِي الحَيَاةِ- بِعِزِّهِ!

أوَلَمْ يُطِقْ.. فِي الطِّين.. صَبْراً،
آيَةَ لِلتِّيه والزَّيتُون حِينَ أشْرَعَتْ،

كُلُّ مَسَامِي لِلرُّؤَى..

عَلِقتْ بنا الأيَّامُ ثُمَّ تَقطَّعَتْ أحْلامُنَا،

وَأبي هُنَاكَ.. تعَلَّمَ الأسْمَاءَ..
فَارْتَبَكَتْ..
عَصَافِيرُ السَّمَاءْ،

حتَّى إذَا ابْتَدَأ الظَّلامُ،
بَنَى لنَا..
شَمْساً عَقِيماً نُورُهَا..

عَصَى وَطَاعَ مَصِيرَهُ،

فَاهَبُطَا الأرْضَ الَّتِي
ضَاقَ المَدَى.. فِيهَا!

زَمَنِي انْبَرَى،
يَبْتَاعُ أرْضاً فِي مَسالِكِهِ،
وَيُرْبِكُهُ الثَّرَى..
[وَوَسْوَاسُ اليَقِينِ!]

وَيَس..
سِرِّي يَصْطَفِي المِيقاتَ..
مِيْقاتَ المَكَانِ!

كُثْراً يَكُونُ الفَرْدُ،
تُرْجَى شُرُورُهُ!
تَحْتَدُّ فِي أوْرَادِهِ الأنْسَابُ والأحْلامْ،
ويَغُطُّ فِيهِ التَّوْهُ..
يَغْشَاهُ الطَّرِيق.

فِي النُّور
تَشْتَبِكُ الطُّيُوفْ!

أبَقَ الفُؤادُ بِأسْرِهِ،

[ومَا المِحْرَابُ –فِي شَهَوَاتِهِ بِألَذَّ..
مِنْ نَضْح العَرَق،
إنْ.. ىمَاطهُ عِشْقُ المَعَاصِي!]

صَرَخَتْ دُفُوفُ الوَقْتِ،
وَانْفَرَط الظَّلامْ!

كَيْما يُرَى،
لوْنُ الحَيَاةِ عَلَى التُرَابْ!!

◆ مَدي تُزَاحِمُهُ البلادْ،

اخْتَنَقَ المَدَى..

انْذَابَ الفرَاغُ مَدَائِنَا..

وَقُرَى تُكَلِّلُهَا المَعَادِنُ والعُيُونْ،

لكِنَّهَا الآهَاتُ..

لا تَخْتَارُ شَهْوَتَهَا!

مَنْ ذَا يُدَثِّرُ رجْفَتِي،

وَمَدَاهُ يُخْلِفُنِي السِّنينْ؟

أبَوَايَ.. مِئْذَنَة.. المَدَائِن كُلَّهَا،

كَمْ احْتَوَتْنِي.. أوْ تَكَادْ،

وكَمْ اجْتَوَتْني فِي البَلادْ،

[أحضَانُ الأحِبَّةِ، وأرْحَامُ القرَابَةِ].

أوْغلتُ.. فِي الأسْفار ذاكِرتِي وَفِي..

قدَمِي البلاءْ!

أعْمَى

أقصُّ الليْلَ..

أخْتَلِسُ العَوَاصِمْ

تُفتّضُّ فِيهَا مَنازِلِي.

ضَرْعٌ يَلفُّ المِئذَنَة!

فأنامُ طِفلاً فِي الهَوَاءْ!

هِيَ ذِي.. تُنازعُنِي الفضَاءْ؟

وَتَسُوقَ لِي القَجَوَاتِ..

تَمْلَؤُهَا الرُّؤى!

هَذَا أَنَا المَبْسُوطُ،

خَطٌّ مَلاحِمَا

هَلْ أَسْتَرِيحُ كَمَا اسْتَرَاحَ الخَطوُ..

فِي شَبَقِ الدُّعَاءْ؟

صَوْتِي يُعتِّقُ حُلْمَهُ..

فَوْقَ السَّمَاءْ.

رَقَّ المَدَى خَيْطاً، يُرَتِّقُ مُهْجَةً،

فَالخَيْطُ فِي الخَيْطِ.. نَسِيجْ!

فَقِلَ المَدَى..

كَي يَسْتَزِيرَ مِنَ المَدَى..

نَسْلاً يُرَتِّبُ.. فِي البِلادِ.. فَحِيحَهُ..

كَي تُرْتَدَي في الأرض أصْوَاتُ الخُوَار.

مَدَى "يُفَخِّخُ" بالشَّظَايَا مَدِينَتِي:

هَلْ تُمْنَحُ الأوْطَانُ دَرْباً مِنْ عَقِيقْ!

وَحْدِي أنَا

هَذِي يَدِي ، مَسْكُونَةٌ بالرِّيحْ،

فَأرِقُّ بَيْنَ أصَابِعِي.. وَأدُورُ،

أخْفِي مَلامِحِي،

فَتَلُمُّنِي وَتَطِيرْ،

كَمْ خُدْعَةٍ قطرَتْ عَلى..
أرْض الكَهَانَةِ والتَّصَامُتِ والعَمَى.

كَمْ مِنْ نَبيٍّ قدْ سَجَا، جَهْرًا بوَادٍ،
غيْر ذِي زَرْعٍ.. يَبُورْ،

هَلْ تَحْتَفِي..
بِحَصَادِهِ أجْسَادُنَا؟

هَلْ نَستَقي،
مِن دُجْنَةِ النُّور القدِيمْ،
سِيَرَ النَّجَابَةِ والطَّوَاطِمِ والأفول؟

- هَاو أنا.. وَبَرَانِي طولُ الرِّيش..

[فِي الطَّاوس تَجْوَالِي.]

- أهْوَى مُؤَخَّرَةَ البِلادْ!

[أنَا الـهَوِيُّ الآنَ،

وَعَلاءُ رَيْثَ مَدَاهُ آخَرْ]

مَنْ ذَا - يَقُومُ الآنَ -

يُوقِفُ فِي الـهَوَاءِ شَهِيقَهُ؟

لعِقَ الزَّمَانُ.. مَكَانَهُ،

فَالنَّسغُ فَحَّ..

وَقَامَ يَحْشُو.. غَيْمَةً..

فَيَطِنُّ فِي لَوْنِ الرِّمَالِ،

مَا يُرَتِّبُ فِي البِلادِ.. عُرُوقَهَا!

فَلِلْمَكَان عَجَاجُهُ،
بَلْ مَا تَبَقَّى مِنْ فَرَحْ.

نسري يُقَيِّدُهُ الجَّناح!

نَمَّى لَهُ..
رِيشُ الحُقُولِ عَلَى الحَجَرْ!

هَلْ شَحَّتِ الأَعْشَاشُ..
وَالأَحْرَاشُ ضَاقَتْ بِالرِّيَاحْ؟

هَلْ ضَاقَ حَرْثُكَ فِي القُلوبْ؟
لنْ أصْطفِي بَلَداً لهُ.. شَجَرٌ حَلالْ!
- كَفُّ الشُّجَيْرَةِ دَقَّ نَافِذَتِي..

وَنَامَ عَلَى السَّحَابْ،

- جُمَيْزَتِي حَقْلٌ..
قَدِ ارْتَدَى الأبْوَابْ،

- الحَانُ.. أدْرَكَ غَيْبَةَ الرُّوَّادِ..
دَارَ بالسَّرَابْ!

-وَالوَقْتُ نَادَى..
نَادِلاً سَيَصُبُّ..
قَبْلَ أوَانِهَا..
الأوْقَاتَ والأنْخَابْ،

- وَالرِّيحُ تَرْفُو ـ فِي الفُتُوقِ ـ حَدِيثَنَا،

- وَالجَمرُ أنثى عَتِيقة..
مَحمُومَةٌ..
بالكَوْنِ والشَّهَوَاتْ..

-وَفِي المَرَايَا،
سَمْتُ طِفْلٍ..
شَدَّ أنْوَرَهُ مَدَى..

- وَأرَامِلٍ.. لمَّا يَمُتْنَ.. أزْوَاجُهُنْ..
يَرْصُدْنَ كَعْكَ الوَقْتِ..
مِنْ فَوْقِ المَوَاقِدِ..
بَيْنَ لَيْلِي وَلَيْلِهِنْ..

-"وَأنايَ "جَمْعَ مِثْلِهِنَّ - فَجِيعَتِي،

مَنْ رَتَّبَ التَّاريخَ..
فِي بَصَر.. هَمَى،
[وَيَدُورُ فَوْقَ دُكْنَتِهِ
وَيُرْبِكُهُ الصَّبَاحِ؟]

أمْتَدُّ فِي نَبْتِ القُرَى،

[أنا الأصِيلُ هُنا،
ألمُ النَّهَرَ مِنْ مَرْعَى الحُقُول]
زِيي..لَدَيَّ!

بَصِيرَتِي.. بَصَرِي.
وَطَرِيقِي مَغْصُوبٌ الخُطَى
[وتَغْشَانِي العُيُونُ!]

قدَمِي أنا

وَصَهيلُ خطوي يَنْتَهي

تَحْتَ السَّلام!

ألِلمَسَافةِ.. وجْهَتَان؟

[هَلْ يَلْتَقِي الشَّرْقُ وَتَاريخِي يُهَاجِرْ،

الشَّرْقُ يَأفلُ!

.... فِي المَدَى،

وَجْهٌ غَرِيب]

فَمَن يُتِيحُ مَشَاعِرِي..

لِشِتَاءٍ عَاهِرَةٍ،

تَعَنَّاهَا السُّكُونْ!

◆ مَدَى الكِتَابَةِ..

قَامَ يَجْنَحُ لِلْمَدَى،

وَحَوَافُ حُلْمِي.. حُلْكَةٌ..

لفَحَتْ بَيَاضَ وُرَيْقَتِي!

سِيَرِي تُرَمِّمُ..

فِي الكِتَابِ سَرَائِرِي،

- لكِنَّنِي اِخْتَرْتُهَا،

كَيْمَا تُقَاسِمُنِي الحُرُوفُ لَيَائِلِي!

لمْلَمْتُ حَرْفِيَ،

فَوْقَ لحظَتِهِ سِوَايَ!

فأفاقَ فَوْقَ سَرِيرَتِي..
ضَيْفاً تأنَّاهُ الكَلامْ،

فأقومُ أحتَضِنُ الكِتابْ،
مَا بَيْنَنا – إنْ غابَ – يُوصِلُهُ الغرَامْ!

خُطُوَاتُ جِسْمِي..

تَفْرِضُ الأحْوَالَ.. والأيَّامْ،

أنا السَّقِيمْ،

لِي لَخْمَةَ السُّقْيَا/ العَطَشْ :

تَرْبُ السَّوَاقِي.. فِي يَدِي..

وَخَدِي.. عَلَى كَتِفِي المِيَاهْ،

وَرِقْقَةُ الوَطَنِ الخَؤُونِ..

وَمُهْجَتِي،

كَانَتْ حُرُوفاً.. مِن تُرِيدِ الأَنْبِيَاءْ!

يَحِنُّ مَنْ لا يَنْحَنِي،

وَمَنْ رَمَى ثَمَرَ الرِّوَايَةِ،

والمَهَارِقَ،

وَالكَلام.

◆مَدى العَشِيق،
سَيَكْتَفِي بخَطِيئَتِي..

وَإجَابَةٍ..
تَستَلُّ مِنْ فَيْض السُّؤال فَضَاءَهَا،

أطلقتُ طيْرَ حَمَاستِي،
فَاصْطَادَهُ قفصُ الكُهُول،

هَرَّبْتُ مِنْ مَتْنِي السَّمَاءَ طريدَةً،
يَصْطادُهَا نبْلُ الطَّوِيَّةِ.. والطَّوَى.

مَن يَّستَمِيلُ -عَلَى الهَوَى
قلباً وَلَمْ يَحْزِمْ مَلامِحَهَا..

وَيَدْخُلُ فِي الوُجُوه!

عَنجَ الغَزَالُ عَلى دَمِي،

بَيْنِي وَبَيْنَ أخِي تَمُدُّ فَضَاءَهَا،

كَانَتْ رَسُولاً يَبْدَأ الأحْزَانَ كَي،
يَتَعَلَّمَ الإنْسَانُ سِرَّ الامْتِلاكْ،

فَتَسِيلُ..

فِي الألوَانِ كُلُّ مَشَاهِدِي:

نَثَرَ العَوِيلَ غُرَابُهَا،

يَنْعَي عَلَى الغُصْنِ البَعِيدْ،

فتُقامُ لِي كَافُورَةٌ فِي الأرْضِ،

أفتَحُ دَهْشَتِي..
وَأنَامُ.. يَسْتَتِرُ العَمَى!

كَيْمَا أعَتِّقُ شَهْوَتِي فِي حِكْمَتِي،
أهْرِيقُ شَيْئاً.. فِي المَدَى..

بالوَرْدِ والرَّيْحَان..

أخْرُجُ مِنْ دَمِي

أنا غريبٌ.. مَوَدَّتِي

وَهَدِيلِي.. يَحْمِلُهُ الأنين!

هَذا أنا الحَلاجُ أجْرَحُ صُحْبَتِي،

لَمْ يَستَبِحْ..

فَوْقَ مَعَارِجِهِ الهَوَى..

[وَيُقْلِقُ فَخَّارَ.. الأصْدِقاءْ]

قَدْ هِنْتُ لَكَ.. بِوَحِينَ:

بَوْحاً يُرَتِّبُ خُطوَتِي:
بَوْحاً ينامُ عَلى خُطاي.

فالشَّوْقُ فِي الشَّوق نشِيجْ،

[وَكُـلُّ جدَار.. غِطـاءٌ.. وَحَاجِزْ !]

هَلْ ضَاقَ عِشْقِي بالمدَى ؟

أنا السَّلِيمْ

يَختلُنِي صَوْتِي..
وَيُدْركُنِي الصَّدَى،
[عَلَى سِينِ السُّكُونِ]

فلكَمْ تهَاوَتْ نشْوَتِي،
فوْقَ عَجِينِ السَّامِعِين،

مِنْهَا الحَرِيقُ..
ولمْ تُمَنِّي نارُهَا.
مِنَّا ارْتِبَاكَاتُ الدُّخَانِ!

كَمْ أثمَرَتْني فِي الخَيَالْ،
سَأسِيرُ فوقَ مشِيئَتِي،
وَأخُضُّ شَائِعَتِي مَدًى،

كَيْلا أظَلَّ .. بِحَسْرَتِي

[وَحِيدَ مَوَدَّتِي.. وَمَدَاي.]

◆مسَافة الحلم.. دَوَتْ،

قامَتْ دُفوفُ رَحِيلِنا!

لَيْلٌ تَدَلَّى،بَلِ اجْتَبى،
مَكْرَ الإجَابَةِ فِي السُّؤال.
لِي رَغبَةٌ.. فِي أنْ أدِيرَ
غضْبَتِي نَحْوَ الفَضَاءِ،
أوْ أنْ أهَيِّئَ مَسْرَحاً،

كَي أستَكِينَ..
وَتَشْتَهِي وَجْهَ القِنَاعِ شَمَائِلِي

ألِلمَسَافَةِ قبْلَة أمْ قِبْلَتَان؟

مَن يَا تُرَى..

سَيَرُشُّ فَوْقَ الرَّاغِبِينْ،

إنْ رَحَلتْ

لَهُ.. سَمَائِي.. سُكَّرَ..

العِيدِ الحَزِين.

[أمْ عَلِيّ]

مَا قَدْ يُرَتِّبُ للمَدَى نجْمَ الفجِيعَة،

وَارَبْتَ حُلمِي ،

فَكَمْ تَغَيَّبْتَ !

قَلِيلاً.. أمْ.. قرِينًا،

[ثُمَّ كَمْ]

عَيَّرْتُمُوهُ انْتِمَائِيَ لِلْمَدَى،

فَلَرُبَّمَا.. أدْرَكْتُهُ..
وَلَرُبَّمَا.. أدْرَكَتْنِي!
لأهِمَّ عَلَّنِي أرْتَوِي،
وَأسَمِّي مَا أخْفَيْتُهُ،

- لَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ
وَاخْتَنَقَ المَدَى

هَذَا هُوَ جَذَلُ الفَتَى مُتَجَلِّدٌ

وَأنِينُ شَكْوَاهُ .. صَهِيلٌ.. فِي البَرَاحِ!

هَلْ يَفْرُغُ الأعْمَى.
[حِينَ يَحْمِلُ دَهْشَةَ الرَّائِي]
مَنْ لا يَرَى،

وَيَغِيبُ "طَيّ" سُؤَالِهِ،
كَفَنٌ تَرَاءَى.. فِي الفَرَاغِ!

وَبَقِيَ الفُؤَادُ هَكَذَا!

فَعَصَيْتُ فِيهِ سَجْدَتِي

وَتَفَرَّعَتْ مِنِّي الصَّلاةُ.

دَقائِقُ.. خَمْس.. فقط،
لا تَخَفْ!
سَأرْجِعُ..
وَمَعِي الحَلْوَى الّتِي تُحِبُّهَا.

ذَهَبَ،
وَحُلكَةُ الأفُقِ تُغْلِقُ الشّارِع.

شَيءٌ مِن الخَوْفِ يَمْتَدُّ،
عَيْنَان تَلهَثَان
بَعْدَمَا ضَمَّهُ اللّيْلُ..
فِي حَنَانٍ غَرِيبٍ.. وَألفةٍ.

أسْمَعُ لِنَبْضِي صَدَى..

تَنَافَرَ مَعَ نِدَاءِ البَاعَةِ.

مَا أقْسَى المَدَى،
رَائِحَةُ شِوَاءٍ..
تَمْنَحُ بَعْضَ السَّكِينَةِ..
تَتَشَبَّثُ بِالذَّاكِرَةِ،
لَمْ تَقْوَ الأَسْنَانُ اللَّبَنِيَّةُ عَلَيْهَا بَعْدُ،
وَالبَشَرُ.. حَمَلَهُمُ المَسَاءُ
كَعَادَتِهِ عِنْدَ الرَّحِيلِ.

حَارَةُ "مُسْعَد"
تُمَشِّطُ هَوَاءَ "مَايُو".
البَقَّالُ يُرَتِّبُ أَحْلامَهُ..
بَعْضُ الغُبَارِ المُنَدَّى..

تقذِفهُ مِياهُ المَحَال،

وَالحَارَةُ..

تَحُثُّ قاطِنِيهَا عَلى المُكُوث،

تَختَلِقُ حِكْمَتُهَا

بحِكَايَاتٍ شَائِعَةٍ..

عَن القنَاعَةِ وَالرِّضَا!

المَبَانِي تُصَافِحُ بَعضَهَا بمَحَبَّةٍ..

لا يُبْغِضُهَا -فِي ذَلِكَ-

سِوَى الهَوَاءِ الذِي اختَنَقَ..

لمْ يَجِدْ مَهْرَباً إلا فِي انفِراجِ نَافِذَةٍ،

رُبَّمَا يُصَادِفُ

حَائِطاً يَستَكِينُ عَلَيْهِ قلِيلاً..

بَعْدَ رحْلتِهِ الطَّويلة.

عَلى بُعْدِ دَقائِقَ مِنْ هُنا..
أزْوَاجٌ عَائِدُونَ مِنْ مَسَاءاتِهِم..
عَبَرُوا بِخِفَّةٍ..
شَيءٌ مَا خَفِيٌّ يُؤَرِّقُهُمْ.. يُرِيدُونَ إنْجَازَهُ سَرِيعاً !

تَأخَّرَ ؟
أنثى تُعَلِّقُ هَمَّهَا..
حَبْلُ غَسِيلٍ.. وَحِيد.
هَكَذا.. "كَانَ عَقْلِي يَلُوكُ الفَرَاغَ،
وَمَشَاهِدَ كَامِلَةً.. مِنْ حَيَاةٍ
لا أفْهَمُ مِنْهَا الكَثِيرَ.. لكِنَّنِي
كُنْتُ مُصِرًّا عَلى انْتِظارِي".

إلَى مَنْ ذَهَبَ يَا تُرَى..

فِي مُقامِ العِشْق؟

حَدَّثنا علاءُ الرّاوية قال: بينما كنتُ تائهاً في سفرتِي الثانية، بعدَ أن دَجَا الليلُ، وَسَرَتْ بي المسافةُ، وسلكتُ في سياحتي مسالكَ وعرة. حتى نفدَ الماءُ، وشحّ الزاد، إذا دَوحة تظهرُ لي من بعيد، بعدما تيقنتُ الهلاك، فشكرتُ الله،وقمتُ آكلُ من الثمر أحسنه، مصطفياً شجرةً -كانت أمام النبع- أتقيَّظ بها من لفح الهجير، متوسداً الرمل، فلما وافتِ الشمس غروبها، وباح الليلُ بأسراره، وشفتِ السماءُ عن لون بُردَتِها، إذا وجه يطلّ لامرأة وضيئة، جميلة الأنف، حسنة العينين، دَعجاء، هَضِيم، ناديتُها فجفلتْ، فذهبتُ إليها أتتبَعُها حتّى وقفتْ، فسألتُها عن مكاني، وكيف أخرجُ منه، فلمْ تُجبْ فقلتُ في نفسي، ربَّما أرادتِ المديح، فأنشدتُ بصوتٍ ولهان:

ومَجْدُولَةٍ جَدلَ العنَانِ إذَا مَشَتْ تَنُوءُ بِخَصْرَيْهَا ثِقَالُ الرَّوَادِفِ

لكنها استأنفتْ سيرَها، وكأنها لم تسمعْني، فلمَّا خفتُ رحيلها عنّي، بعدَ أن كانتْ أوّل من رأيتُ في هذه الدوحة، قررتُ أن أجرب فراستي، فقد كانتْ شديدة الشبه بامرأة رأيتُها في

قوَافيها، فقلتُ والله، ما كَذَبْتُ ما رأيت، أنتِ ليلى الأخيلية أنتِ من هَجَرَتْ تَوْبَة بن الحُمَيِّر، فانتبهتْ وقالتْ:

مَعَاذَ إلهي قَدْ كَانَ وَاللهِ تَوْبَة جوَادًا عَلَى العِلاتِ جَمًّا نوَافِلُه

والله لم يكن جريءَ العينين، وقحَ النظرات مثلك، بل كان نعمَ المحب وأنشأتْ:

وَتَوْبَة أحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ وأشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِخِفَّان خَادِرِ

فقلتُ لها أجاملها، أما أنا فوالله مارأيتُ امرأةً أطلق لساناً ولا أجمل وجهاً، ولا أحسن لفظاً، منكِ، لقد تقدمتِ على أكثر الفحول، فهشّتْ لي، وأخبرتني عن وحدتها، بعد مرور كلِّ هذا الزمن، فلمّا تيقنتُ الوصال، أعطيتُها خاتماً -من خواتيمَ كنتُ محتفظاً بها لمثل هذه الامور- مكتوباً عليه بخطٍ دقيق:

أنا قتيلُ الهَوَى وَمَيِّتُهُ لا عَذَّبَ اللهُ قَاتِلِي بِدَمِي

ولما أعجَبها ما كُتِبَ عليه، أخذتني من يدي إليها، وكان لهذا حكاية أخرى، وفي الصباح سألتُها عن طريق الخروج، فقالتْ

أخبرك في اليوم الأخير، فغادرتُ مكانها، ذاهباً إلى شجرتي وعقدتُ العزمَ على البقاء ابتغاءً للراحة سبعة أيام، بعد أن استبشرتُ بها،فأخذتني غفوةٌ، قمتُ بعدها أستكشف الجوار فإذا امرأةٌ تختال بجانب النبع، كانت كاعباً، زَهراء، خفيفة اللحم، سُرعُوفة، فوقعتْ في قلبي، فأنشدتُ لابن مقبل:

يَمْشِينَ مِثْلَ النَّقا مَالتْ جَوَانِبُهُ يَنْهالُ حيناً، وَيَنْهَاهُ الثَّرى حِينا

فلمَّا انتبهتْ إليّ، جعلتُ أحادثها وأروي لها حتي لانتْ، فتيقنتُ حدوثَ المراد، وسألتُها عن اسمها ففاجأتني بقولها، أنا لك لو عرفتني، أنا من قيل فيها:

أحِبُّ المَكَانَ القفرَ مِنْ أجْلِ أنَّنِي بِهِ أتَغَنَّى باسْمِهَا غَيْرَ مُعْجَمِ

فقلتُ متهللاً عرفتُكِ، وأنشدتُ لذي الرُمّة:

وَلَمْ يُنْسِنِي مَيَّا تَـرَاخِي مَـزَارِهَا

وَصَرْفُ الليالِي مَرُّها وانْفِتَالُهَا

عَلى أنَّ أدْنَى العَهْدِ بَيْنِي وبَيْنَهَا تَـقَـادَمَ إلا أن يَّزُورَ خَـيَـالُـهَا

فابتسمتْ وقضينا معاً تلك الليلة نتباحث في أمور شتى! بطرائقَ شتى! ورأيتُ أن أخفي عنها أمر البارحة. وفي الصباح، سألتُها عنْ طريق الخروج، فقالتْ مثل صاحبتِها ولم أردِ الإلحاح، فتركتُها نائمةً، بعد أن أعطيتُها خاتماً كُتِبَ عليه:

لا فرَّجَ اللهُ الصَّبَابَةَ والهَوَى عَنِّي وَلا زَالتْ عَلَيْكِ مَحَبَّتِي

ورجعتُ إلى مكاني، ونمتُ حتى حلّ عصرُ اليوم الثالث وبينما أنا أتفكرُ فيما حدث إذا امرأةٌ لقّاء، وَسِيمة، رُعْبُوبَة، عُطبُول أمامي، فأردتُ وصفها، فلم أجدْ أفضلَ من وصف أبي نُوَاس:

فَوْقَ القصيرَةِ والطَّويلَةِ فَوْقَهَا دُونَ السَّمِينِ، وَدُونَها المَهْزُولُ

لكنّها خفرتْ، ثمَّ همّتْ بالرحيل، فأنشدتُ للمتنبي أمدحُها وأغازلها:

وَخَصْرٍ تَثْبُتُ الأبْصَارُ فِيهِ كَأنَّ عَلَيهِ مِن حَدَقٍ نِطَاقَا

فتلفتتْ، حتى واجهتْني، وقالتْ بلْ أنا من قال فيها حبيبُها:

إلى الله أشكو ما أكِنُّ مِنَ الهَوَى   وَمِن حُرَقٍ تعْتَادُني وزَفِيرُ

فقلتُ متهللاً.. أنتِ لبنى صاحبة قيس، فابتسمتْ، فجعلتُ أروي لها حتى خلعتْ حياءَها، ثم جعلنا نتسامر.. وعندما جاءَ المساء، أخذتني إلى مكمنِها، وخبرتُ هذا اليوم قول عبدِ بني الحسحاس:

تُوَسِّدُني كَفًا وَتَرْفعُ مِعْصَمَا   عَلَيَّ وَتَحنو رِجْلَها مِنْ وَرَائيا

ولمّا انقضى صباحُ اليوم الرابع معها، سألتُها عن طريق الخروج، فقالتْ: أخبُركَ في آخر يوم لك هنا،فتهيأتُ للرحيل وأعطيتُها خاتمَها، المكتوب عليه:

عَلَيْكِ سَلامٌ لا سَلامُ مُوَدِّعٍ   وَلَكِنْ سَلامٌ لَمْ يَكُنْ آخِرَ العَهْدِ

وذهبتُ إلى مكاني تحتَ الشجرة قائلاً لعلّ وعسى وكدتُ أن أغفو، لولا اني لمحتُ من بعيد، وأنا بين اليقظة والنوم امرأةً سبطة، جميلة الوجه، مَرْمَارَة، فجلستُ أرقبها حتّى اقتربتْ ورفعتُ صوتي منشداً:

يمشينَ مشيَ قطا البطاح تأوُّداً قُبُّ البُطونِ رَوَاجِحَ الأكْفالِ

فانتبهتْ، ونظرتْ إلي، ثم قالتْ تأدّبْ أيها الغريب، فأنا من قيل فيها:

تباعدتِ عنّي حينَ لا ليَ مَلجَأ وَخَلّيت مَا خَلّيتِ بَيْنَ الجَوانحِ

فقلتُ صائحاً.. أنتِ عزة التي قالَ فيها كثيّر:

وَإنّي لأرْضَى مِن نَوالِكِ بِالّذِي لَوْ أبْصَرَهُ الوَاشِي لقرّتْ بَلابِلُهْ

فبكتْ، فأخذتُ أكلمها عن العشاق حتى هدأتْ سريرتُها ثمّ أنشدتُها قول "امريء القيس":

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلا لِتَضْرِبي بِسَهْمَيْكِ فِي أعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

فابتسمتْ قائلة صَهٍ يا لئيم، فجعلتُ أسامرها حتى لانتْ، وبت عندها الليلة، ولا أظن أن كثيّراً قد رأى ما رأيتُ، وخبر من غنجها ما خبرتُ، فسألتُ نفسي كيف يكون حالُ كثيّر لو منحته ما لا يطيق البيانُ عن وصف حلاوته. ولما جاء الصباح طلبتْ منّي الرحيل والكتمان، ونسيان ما كان بيننا

فوعدتُها، وسألتُها عن طريق الخروج، فقالتْ أخبرك في آخر يوم لك هنا، فأعطيتها خاتماً كتبتُ عليه:

عَلَيكِ سَلامُ اللهِ مَا حَنَّ آلِفٌ

وَمَا اشْتَاقَ ذُو وَجْدٍ وَمَا طَلَعَ الفَجْرُ

ورجعتُ لموضعي تحتَ الشجرة، وجلستُ أستغفر الله عمَّا بدر مني في الأيام الأربعة الماضية، ثمّ قمتُ للتّجوال، ولفضّ مجاهل مكاني، وبينما أنا على هذا الحال، إذا غانية قوية العزم في حركتها، بهكنة، ممشوقة، رَدَاح، مَمْسُودَة، عَيْلم وقد تجرَّدتْ تلهو في نبع ماء، فجعلتُ أنظر حتى رأتْني، وقد تغيّر حالي، فوجَلتْ، وطلبَتْ منّي الرحيل، فأظهرتُ لها العشقَ، وكانتْ قد وقعتْ في قلبي، وأنشدتُ لمسلم بن الوليد:

فَعضّت بأيديها ثِمَارَ صُدُورِهَا كَأيدِي الأسَارى أثقلتْها الجَوَامِعُ

فقالتْ وهي تستر نفسَها، هل تعرف مَنْ تخاطب، أنا المتجرِّدَة امراة النعمان فاذهبْ أيها العابر، واصلِحْ شأنك، فقلتُ لها

والله لا أغادر حتى تخبريني أولاً ،كيف قال فيكِ النابغة:

وَإذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ أجْثَمَ جَاثِماً   مُتَحَيِّزاً بِمَكَانِهِ مِلءَ اليَدِ

فقالتْ قبَّحَه الله، ولعن الله المنخّل اليشكري، فهو من أدخل في قلب النعمان الشك، فنفى النعمان كلينا إلى زمنٍ آخر وجاء بي قدري إلى هنا، فلمّا رأتْ أني أعرفُ ما أعرف تساهلتْ معي، فقلتُ، وهل لكِ أن تصلحي من حالي! فأنا كما رأيت، فقالتْ بشرط، قلتُ ماذا، قالتْ، أن تنشدني أفضل ما قيل في العشق، فقلتُ تعرفينه، وهو لامريءِ القيس:

فمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَ مُرْضِعٍ

فَألْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوَلِ

إذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ

بِشِقٍ، وَتَحتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ

فاستحسنتْ ما أنشدتُه ،ثمَّ نظرتْ إليّ بجرأةٍ، فقدْ كانت شَمُوعاً، وقالتْ: وهل تعرف غير ذلك؟ فأنشدتُ لأبي وهب:

تقولُ وَقدْ جَرَّدْتُها مِنْ ثِيَابِها

كَمَا رُعْتَ مَكْحُولاً مِنَ العَيْنِ أتْلَعَا

فَبِتْنَا نَزُودُ الوَحْشَ عَنَّا كَأنَّنَا

قتِيلانِ لمْ يَعْلَمْ لنَا النَّاسُ مَصْرَعَا

إذَا أخَذتُهَا هِزَّةُ الرَّوعِ أمْسَكَتْ

بِمَنْكِبِ مِقْدَامٍ عَلَى الهَوْلِ أرْوَعَا

فقالتْ لي وهل تفهم ما تقول، فقلتُ.. لن تندمي إن شاء الله فذهبنا إلى مكانها، وكانت ليلة ليلاء لمْ يعرفِ الطير فيها نوماً، فلمّا كان الصباح، طلبتْ مني الرحيل بعد أن قضيتُ عندها الليل، ثم سألتها -قبل ذهابي- عن الطريق، فأجابتْ مثل الأخريات، فأعطيتُها خاتماً عليه:

صِلِينِي بالكتابِ وبالسَّلامِ وزُورِي زَوْرَةً فِي كُلِّ عَامِ

ثم رحلتُ إلى مكاني تحتَ الشجرة متعباً، وأخذتُ أفكر في أمر أيامي الخمسة،حتى استغرقني النوم، فإذا حركة قريبة مني

فقمتُ أنظر ما الأمر فرأيتُ امرأةً عَبْهَرَة، بضة، ليّنة العصب سَنْهاء، وهي مستلقية في استرخاء وقد ظهرَ ما ظهر، ولما لاحظت وجودي أصلحتْ مِن شأنها في تصنُّع، فقلتُ لها ما قاله الفرزدق:

إذا بَطحَتْ فوْقَ الأثافِي رَفعتْهَا

بِثدْيين فِي صَدْرٍ عَريضٍ وَكَعْثَبِ

كنتُ أنشدُ وهي تنظر إليّ بثبات، فلم ألحظ بَعضَ الحُمرة التي أعترتْ وجهي، حتى نبهتني، وهي تضحك، ففرحتُ لانبساطها معي، وسألتُها فقالتْ:

وَإنِّي لتَعْرُونِي لذِكْرَاكِ رَوْعَةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي والعِظَامِ دَبِيبُ

فقلتُ أنتِ عفراء صاحبة عروة بن حزام، فهل لوصلك من سبيل، فقالتْ.. إيحَىَ.. ودبّتْ في السّير، فلحقتُها.. فقالتْ أراك لا تفهم إلا في الرواية، فقلتُ صدقتِ! ثم أخذتني إلى

مكمنها، وبدأنا حتّى طلّ الصباح، فأعطيتُها خاتمها وقد كُتب عليه":

سَلامٌ عَلى مَنْ شَقّني وَأذابَنِي وَأسكَنَ قلبي كُلّ وَجْدٍ وَمَألَم

وَقبلتُها كما أرادتْ، ونسيتُ سؤالي عن الطريق، ثُمَّ مَشيتُ حتّى وصلتُ إلى الشجرة وبدأ يومي السابع فشربتُ وأكلتُ ثم غفوتُ، وقبل أن تداعبَ الشمسُ وَسط السماء، قمتُ على صوت جميل ينشد:

كِلانا مُظهِرٌ للنّاس بُغضاً وَكلٌ عِنْدَ صاحِبِهِ مَكِينُ

فجعلتُ أتتبع الصوتَ،إذا امرأةٌ مُعْصِر، هِركُولة، طويلة العنق، مَرمَارة، خَرِيع، تتثنّي من اللين تقف فوق رهوَة قريبة: فقلتُ لقد كنتما ترعيان البَهمَ وأنتما صبيان، فقالتْ أتعرفنا، فقلتُ:

تَعَلّقتَ ليلى وَهِيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ ولمْ يَبْدُ للأتراب من ثديها حجمُ

فقالتْ نعم أنا هي، وأنشدتْ لقيس بن معاذ:

وإنّي لأستغشي وَمَا بيَ نَعسَةٌ لعَلَّ خَيَالاً مِنكِ يَلقَى خَيَالِيَا

وبينما نحن نتجادل إذا صاحبة لها لم تكن جميلة الوجه لكنها ضحّاكة، رَبلة، رقراقة، فسألتُ ليلى عنها، فقالتْ هي من قال فيها صاحبها:

لا والذّي تَسجُدُ الجِبَالُ لَهُ مَالِي بِمَا دُونَ ثَوْبِهَا خَبَرُ

فقلتُ أنت من قال فيكِ جميل:

ألا ليْتَنِي أعمَى أصَمُّ تَقُودُنِي بُثَينَةُ لا يَخفَى عَلَيَّ كَلامُهَا

فقالتْ نعم،فأخذنا نتجاذب أوصال الحديث،وجعلت أناغيهما حتى تعب اللسان، ولم أكن أعرف جواباً لسؤال ماذا بعد؟ فمالتْ عليّ ليلى وهي تقول، ستذهب معنا، فهي ربوخ، فتمّ ما أشارتْ إليه على خير وجه، وظللنا على هذا الحال حتى أعياني الوقوف فلمّا أنقذني الصباح، غادرتهما مسرعاً، وتركتُ لهما خاتماً واحداً كُتِبَ عليه:

عَلَيْكِ سَلامُ الله هَلْ أنَا مَيِّتٌ بِدَاءِ هَوَانِيكِ الشّقِي المُقَلقِلِ

وفي صباح اليوم الثامن.. يوم الرحيل، قلتُ لنفسي ماذا لو عادتِ الحكايات.. وجاءتِ الأخيلية، وتكرر ما حدث.. ولكن لم تزل عبلة! لم لا أتأخر يوماً أو يومين، علني أروي عنها بعد أن أصاب روايتي هذه رتابة العشق، وملل الصبابة والعشيق، فقررت التوقف، لأنني خفتُ أن يسوء حظي في اليوم الثامن، وأقابل عنترة، فعزمتُ أمري، وقررت الرحيل وجلستُ انتظر أن تفي امرأة منهن بوعدها، وترشدني إلى سبيل الرشاد! فهن يعرفن جميعاً شجرتي، وبينما أخذني التأمل في حالي كل مأخذ، وأنا أسائل نفسي لماذا يغيب الرجال عن هذه الدوحة، إذا امرأة، خَوْد، بشوش، حسناء خَدَلَّجَة، فأنشدتُ لابن أبي زرعة الدمشقي:

استَكتَمَتْ خَلخَالها وَمَشَتْ تَحتَ الظَّلام بِهِ فَمَا نَطقَا

حتَّى إذَا ريحُ الصَّبَا نَسَمَتْ مَلأ الرَّبيعُ بِسَنَيرِهَا الطُّرُقا

فقالتْ بل أنا من قيل فيها:

فقلتُ نعم أنتِ من تخلفتُ عن معرفتِك، والأنس بك، أنتِ عبلة، وبدأتُ الرواية والمسامرة، ولكن الوقتَ لم يمهلني، إذ رأيتُ من بعيد المتجردة، قادمة إلى شجرتي، ومن خلفها بقليل لبنى، فقلتُ حمداً لله حان وقتُ صمتي والرحيل، وقبل أن أكملَ عبارتي، وجدتُ على يساري ليلى الأخيلية، وعلى يميني عفراء، ومن خلفها عزة، وفجأة سمعتُ صوت ليلى وبثينة.. وكانتا قادمتين من الخلف، وبعد هنيهة جاءت ميّ، فلمّا تحلقن حولي، وَأخذت كل منهن تنظر في يدِ صاحبتها فترى خاتماً يشبه خاتمَها، بدأن النظر إليّ بعيون توشك أن يفيض منها الغدر، فاتخذت الصمت حجاباً يسترني وأنا أفكر في طريق الخلاص، بعدما تيقنت الهلاك، ظلماً وعدواناً حتى قالتِ المتجردة والله إن خواتيمك فضحَتْك، فأنشدتُ وعلى وجهي هلعُ المظلوم:

يَقُولُ أناسٌ فِي الخَوَاتِيمِ إنَّهَا

تُقَطِّعُ أسْبَابَ الهَوَى وَأقولُ

بأنَّ خَوَاتِيمَ المِلاحِ وَصُولَةٌ

وَخَاتِمُ مَنْ تُهْوَى المِلاحُ وَصُولُ

ثم أعطيت عبلة خاتماً، وكأنَّ لساني يقول إنه لاعلاقة بين الخاتم وما يَظُنُّهُ في أمري، ثم أنشدتُ وأنا أخص كلَّ منهنَّ بنظرة ملأى بالإخلاص والعشق دون انتباه الأخرى:

رُبَّ بَيْضاءَ خَصْرُهَا يَتَثَنَّى قد دَّعَتْنِي لِوَصْلِهَا فَأبَيْتُ

وبينما أنا على هذا الحال أدفع عني التهمة، إذا أعرابية تمرُّ بجانب الشجرة، فقلتُ في نفسي لعلّها تنقذني مما أنا فيه وترشدني إلى الطريق، وظنّي أنَّ كلَّ منهن تيقنتِ الآن أنني كنتُ لها وحدها، فبادرتُ الأعرابية بالسؤال: من أين أتيتِ! فأجابتْ: أنا من بني عذرة، فقالتْ ليلى الأخيلية: أنتم أكثر الناس عشقاً.. فما تعدون العشق فيكم فأنْشَدَتْ:

ثم سألتني: أنتَ من الحضر، فكيف تعدون العشق فيكم؟ فقلتُ دون تفكير: العشقُ دائرةٌ! يقعد بين رجليها ويجهد نفسه" فقالتْ، ما هذا عاشقاً.. هذا طالب ولد، فلمّا نظرنَ إليّ بغضب، تصنعتُ الموافقة، وسألتُهنّ غفران جهلي، ثم ودّعتهنّ بعد طول جدل وعناد، بعد أن فشِلنَ فِي استبقائي ووعدتهنّ بلقاءٍ قريب، وحمدتُ الله أنني استطعتُ النجاة، ثمّ سرتُ بعد ذلك مع الأعرابية نحو طريق الخروج، أما شجرة الكلام التي أستظلّ بها وتقوم روايتي عليها، فقد تركتُها لهن آسفاً، وبينما كنتُ مع الأعرابية أغِذُّ في السّير، إذا قريني ينادي، ثمّ أنشأ يقولُ عن صفة الهوى:

الحبُّ أوّلهُ مَيْلٌ تَهيمُ بَهِ نفسُ المُحِبِّ فَيَلقى المَوْتَ كاللّعِبِ
يَكُونُ مَبْدؤهُ مِن نَظْرَةٍ عَرَضَتْ أوْ مزْحَةٍ أشْعِلَتْ فِي القلبِ كاللَّهَبِ كالنَّار مَبْدَؤهَا مِنْ قدْحَةٍ فإذا

تَضَرَّمتْ أحْرَقتْ مُسْتَجْمَعَ الحَطبِ.

فلمّا أعجبها كلامُه، اصطفتْهُ وتركتْني، ثم دلّته على الطريق وهي تقول"والله إنَّ روايتك لرواية عاشق"،وكافأته بخديعتي، وعرفتُ فيما بعد أنها أرشدته إلى طريقي بعد أنْ غدرتْ بي، وتركتْني في دائرتي أهيم، قبل أن تمدَّ له يدَها وتمنحه يَراعةَ وهي تهمس له، خُذْها مكان شجرته، وورقة عرفتُ بعد ذلك أنها كُتبَ فيها: قلبُكَ مع أخرى، ولَها عليكَ حقٌّ بينَ يديك، أراهُ في قولك، وفي ماءِ عينيك، فأدركْ صاحبتَكْ، وأنشد:

قَلِقٌ عَنْكِ مَدَاي:

كَانَ البَحْرُ قلبَهَا..

وَالمَوْجُ عُيونهُ الفاحِصَة..

مَضَى يَجْمَعُ البَحْرَ!

يَصْطفِي ثغْراً للمُكُوثِ!

عَاقلتهُ السَّمَاءُ!

فأطلقَ أصَابعَهَا..

تُصَفِّقُ ليْلهُ كُلَّ يَوْم،

وَتَسْفحُ عُمْراً..

فِي شَاسِعِ وَجْدِهِ المُنْفلِت.

يَغْسِلُ ظِلالهُم كَي تُغَادِرَ مَوْجَهَا.

ذهَبَتْ مَرَاكِبُهُمْ لِشَيْطانِ الرِّيح.

فتلوَّنُوا بَالغِيابِ..

أحْكَمَ إغمَاضَة عَلى رَوْضِهَا..

يُدَاعِبُهُ الشَّجَرُ..

كَانَتْ أقدَامُهُ حَصْبَاءَ تُغَادِرُ..
وَمُحِيطُهَا مَكَانَهُ المُنْتَخَب.

هِيَ قَامَةٌ..
عَلَى هُدُبِ المَسَافَةِ..
تَوَتَّرَتْ فِي قَامَتَيْن..
شُعَاعٌ مَزَّقَ عَبَاءَتَهُ..
ثُمَّ اسْتَقَرَّ يَكْشِفُ لَهَا العَابِرِينَ..
وَهِيَ تُخْفِي المَسَالِكَ..
فِي ثِمَار الشَّجَر.

فَكَمْ رَدَّ قَلبِي يَدَ اللامِسِينَ

ثُمَّ أضحَى نَافِذَةً مُشْرَعَة.

أدري أنَّ لِعَيْنيْهَا فِي عَيْنِي خَبَباً،
عُبَّاداً للشَّمْسْ،
وَمَغَارَاتٍ تَنْضَحُ بَالأسْرَارْ!
تَشْتَقُّ الأحْوَالْ،
وَمَنَارَاتٍ.. وَسَرَادِيبِ مَحَار.. أدري..
أنَّ لِخُطوَتِها فِي قلبِي جَرْسَاً،
بَلْ رَجْعَ جِبَا لِ تَخَبَّط صَبَاً،

بَلْ نَشْوَةَ نَهْرٍ يَكْدِمُ سَدَّاً عِشْقاً..

بَلْ هَمْسَةَ مَاءٍ،
إن رَتَّلَ فِي المَاءِ سُقُوطاً..
كَي يَسْتَلَّ سَبِيلاً..
لوْ مَاءُ القلبِ صَفَا..

أوْ يَنْشَقَّ دُوَارْ.

أدري..
حِينَ تُقَسِّرُهَا يَدِي العَطْشَى أنَّ..
لِفَصْلِ الأنْثَى وَجْهَ رَبِيعٍ رَقَّ لَنَا،
أوْ نَزَوَاتِ شِيْئًا..
وَبَقَايَا لِمَرَايَا تَتَعَرَّى.. شَغَفاً،
مِثْلُ عُيُونِ الأطْفَالِ..
وَصَدًا تَجْفِلُ مِثْلُ مَهَا..
أنّى تُشَارِفُ فَوْتَ نَهَارِ.

أدري إنْ.. شَبَّ الغِرْيَنْ..
أوْ أوْثَقَ طِينٌ مَاءً،
أنَّ الغَيْثَ يُنَازِلُهَا..

كَي يَفتَحَ لِلمَائَيْن مَدًى،
لأدثِّرَ طوْعاً..
بَيْنَ الوَقتِ المَنثُورْ،
وَالدَّهْر القابع وَجْداً..
فِي العَيْنَيْن.. هَوَى،
ورَمَاهُ العِشْقُ مَدَار.

هَلا قامَ لِسَانُهَا،
يَزْرَعُ أرْضِيَ عُشْباً،
ونَخِيلاً يَزْحَفُ سَعْياً،
ويَمُدُّ ضَفَائِرَهَا شَفْعاً..
فَوْقَ مَدَايَ ظِلالاً..
مَالِي.. بِظِلَّيْهَا اعْتَسَقَا !
فَوْقَ المَيّاسِ الغَامِضِ مِنْهَا !

وَأنا..

خَشَبٌ فِي الغَابَاتْ،

[لَمْ يَمْنَعْهُ حَرِيقْ!]

قدْ صِرْتُ وَظِلّي مُشْتَبِهَيها..
هَلْ أشْدُو وَحْدِي..
بِقَوَافِيَ سَعْيِي،
أعَرِّي قصِيداً مِن فِتْنَتِهَا،
وَ أسْكُبُ شَهْدَ حَرِيقِي.. لهَا،
فَالوَجْدُ شَقَا..
[يُشَقِّقُ خَفَرَهَا نِصفَيْن!]

أدري أنَّ لِسَاقيْهَا..
سَبْعَةَ أوْكَار للدِّفء.

لمْ تغتمِضَا،

وَتمُدَّا شئُونِيَ..

جِسْراً فِي العَيْنيْن..

كَمَا يَغوِي أرْضاً عَطشَى.. رَنِينُ سَمَاءْ،

فالمَاءُ سَقَى

فِي سِنةِ الغيْمِ!

وَأنا ليْلٌ اصْنَاهُ سُهَا..

وَلكَمْ أسقط.. أورَاقَ الزَّهر ندًى وَعِنادْ!

هَاأنذا..

تحْتَ جَدِيلتِهَا أهْمِي وَتْراً.

مِنْ.. قوْحِ مِنْهَا..

فِي العِرْقِ شَكّا..

أستَهْدِي نَاياً بُحَّ لهَا..

كي يُطلِقَ فِي مُجْرَاهَا نغماً..

فاحَ..

ولَمَّا يُخْفِ عِنْدَ البَوْحِ صَدَاهْ..

حَتَّى فرَّتْ بِمَلامِحِهَا إليَّ

فأدُورُ عَليْهَا طيْفاً..

كَيْلا يُفزِعَهَا النَّابِضُ.. بَيْنَ عُيُونِي طيْراً،

كَيْمَا يُقِيمُ - الآنَ - فضَاءً..

قدْ يَلأمُ جُرْحاً.. وَهَوَى!

فرَدّ إنّي

وَمِيمُ مُصَابِي مِنّي

وَمُنَاي فقرِّي

وَامْتَسِكِي مُهْرَ مَدَانَا، أوْ رُدِّي إلَيَّ مَدَايَ.

مَجْنُونٌ هَذَا الطُّحْلبُ..

فِي الشَّوْكِ.. إلَيْهَا يَسْعَى.

أدْهَمُهَا بِصَهِيلٍ مَحْمُومٍ،

يَنْتَفِضُ البَرِّيُّ.. الرَّاقِدُ،

فِيَّ يَنْقَضُّ الخَيْلُ الرَّاكِضُ فِيهَا.

وَأنَا

أمْتَدُّ مَرَاعِي

تُحَاصِرُهَا دَخْنَةُ قَلْبٍ،

أشْعَلَهَا العُمْرُ

وَضَاعَ سُدَى.

أرْبَعُ دَقائِق ، وَنُورٌ خافِتٌ.. وَأنا

كَانَ وَجْهُ أمِّي غامِضاً،
يُرَاقِبُ أيَّامِي.. وَهِيَ تَنْمُو ،
فِي تَفاؤلٍ واشْتِهَاء،

أحَاوِلُ أنْ أضُمَّ بَعْضَ الألفَةِ.. عَبَثاً
مِن الشَّارِعِ الغَريب!

مَرَّتْ دَقِيقَة كَامِلَة،

نَبَتَتْ لِحْيَتِي،
"نبيلة" تَسْطَعُ وتَغِيب.

كَانتْ مَاريَّة أوّلَ قبْلةٍ اختلسْتُها..
حِينَ تَهَشّمَ نُورٌ عَلى سُور الحَدِيقة.
مَاريَّة تُلمْلِمُ ضحْكَتَهَا:
سَأطعِمُكَ ناراً....

لمْ أتعَلّمْ
أنّ الحَيَاة أشَدُّ فِتْنة مِن الخَيَالْ!
فِي ثالِثِ لِقاءٍ..
ظلَلْنَ مِثْلِي تمَاماً
يَشْغَلُهُنّ انتِظاري!
فرَدَتْ شَهْوَتهَا كَامِلةً:
(يَالكَ مِنْ غَرِيب)

هَكَذا هَمَسَتْ

قبْلَ أنْ.. تجْهَشَ بالبُكَاءْ!
وَبَعْدَ سَاعَتَيْن كَامِلتَيْن،
لَمْ تَجِف!

ارْتِعَاشٌ أخِيرٌ يُحَلِّقُ.. فِي زَفِيري..
يَحُطُّ عَلى شُرْفةٍ مُهْمَلة.
فشَرَدْتُ..
قبْلَ أنْ.. تَغْوِيَ فِي خُشُوع:

لِمَاذَا تأخَّرَ..

مُقامُ الكِتَابَة؟

حَدَّثنا علاء الراوية قال بينما نحن في السَّفر الثالث في موسمٍ من مواسم الرحيل، وقد أخذنا الطريقَ ننتهبُ مسافته، صحبتُ في الطريق قوماً دعوني إليهم، لا أعرف منهم أحداً، فلما دار الحديثُ بنا وتجَاذبنا، سفرَتِ القصةَ عن رأيٍ تآلفوا فيه ضدّ الكتابة، واصلينَ البلاغةَ بالنطق والسمع لا بالكتابة، فقال سيّدهم "سُمّيتِ البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه" ، فأثنى على قولِه محمد بن الحنفية قائلاً "نعم.. البلاغة قول تُضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة"، فأيّده شخصٌ يُدعَى إبراهيم بن الإمام "يكفي من البلاغة ألا يُؤتى السامع من سوءِ إفهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.. " فقالَ رفيقُهم إسحق بن إحسان، وكان له ولعٌ بالتفلسف، البلاغةُ لا تكونُ في المنطوق فقط "فالبلاغة اسمٌ لمعان تجري في وجوهٍ كثيرة، منها ما يكون في السكوتِ ومنها ما يكون في الاستماع" فهبّ أحدُهم -وكانَ مِنْ أصلِ يوناني - قائلاً

لإسحاق أذكَرْتَني أمراً " هل تعلمون أن أرسطو أسقط من "فن الشعر" كلَّ الشعر الغنائي المكتوبِ غير المنطوق والمؤدَّى"- ومن قبله قال سقراط حين سُئلَ عن تركِه تصنيفِ الكتبِ "لستُ بناقل للعلم من قلوب البشر الحية إلى جلودِ الضأن الميتة"، فرفعَ أحدُهم صوته ناقلاً عن الجاحظ قوله "..لو كانتِ الكتابة شريفة، والخط فضيلة، كان أحقّ الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أوْلى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتُهم، وذوو القدر والشرف منهم، ولكنَّ الله منع نبيَّه صلى الله عليه وسلم ذلك، وجعلَ الخط فيه دنيَّة وصدّ العلم به عن النبوة" واعلمْ أن أول مرتدّ في الإسلام كان كاتباً (...) فالكتبة شرار خلق الله، لهم طباعٌ لئيمة (...) وقد حرَّم الرسولُ الخط! فاستغربتُ أن يصدرَ هذا الكلامُ من الجاحظ، فقلتُ لكنني حفظتُ عنه أنه قال "الكتاب وعاء ملىء علماً (...) ينطقُ عن الموتى، ويترجمُ كلامَ الأحياء" فنظروا إليّ نظرة "المندس"، وكان معهم طبيبٌ مصري اسمه علي

بن رضوان، فلما رأى منهم ذلك، رقَّ لي قائلاً ".. وصولُ المعاني من النسيبِ إلى النسيب، خلاف وصولها من غير النسيب إلى النسيب (...) فقُرْب الناطق من الناطق مقرِّب للفهم (...) فالفهم من لفظ المعلم أسهلُ وأقرب من لفظ الكتاب.. " فقاطعتُه قائلاً - والله- إني أحفظ لأبي حيان التوحيدي قوله "... الكتابُ يُتصفح أكثر من تصفح الخطاب لأن الكاتبَ مختار، والمخاطِبَ مُضطر، ومن يَردُ عليه كتابُك فليس يعلمُ أسرعتَ فيه أم أبطأت.. إنما ينظر أصبتَ فيه أم أخطأت، وأحسنتَ أم أسأت.. فإبطاؤك غير إصابتِك، كما أن إسراعَك غير مُعَفٍّ على غلطك" فنظروا إليّ وقد لوّنَ وجوهَهم الغضب، حتى ظننتُ فيهم الغدر، فقررتُ السكوت، فلما رأوا منّي ذلك، قال أحدُهم يثيرُ شهيتي للكلام "لكنَّ الشعرَ لا يحبّ الكتابة، لقد سمعتُ أبا هلال العسكري يقولُ "وممّا يعرف أيضاً من الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مَدَار الدار، وليس للشعر

بهما اختصاص (...) واعلمْ أنّ البلاغة قد سُمِّيتْ بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلبِ السامع فيفهمه (...)" ولهذا سُمّي حامل الشعر راوية... أما الفصاحة فهي الإظهار (...) فمن يوصف كلامه بالفصاحة يوصف بذلك لما يتضمّن من تمام البيان، والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتامَ لا يسمّيان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف"، وقبلَ أن ينهي كلامَه أنشدتُ لحبيب الطائيّ أصالحُهم:

لكَ القلمُ الأعلى الّذي بشَبَاتِهِ

يُصَابُ مِنَ الأمْرِ الكُلَى والمَفَاصِلُ

لُعَابُ الأفَاعِي القاتِلاتِ لُعَابُهُ

وَأرْيُ الجَنَى اشْتَارَتْهُ أيْدٍ عَوَاسِلُ

كنتُ سعيداً بما حفظتُ من علمِهم، فإذا قريني، ولم أكن قد شعرتُ بوجوده، يغادر القوم، وقد رمى إلي بصحيفةٍ كُتب فيها: أخطأ القومُ، وصدقَ المتنبي حين قال:

أعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنا سَرْجُ سَابِحٍ

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمانِ كِتَابُ

ثم غادرنا سريعاً، فأراحني الله منه، وعرفتُ بعد ذلك أنه استهلّ مَسِيرَهُ الجديدَ بالكتابةِ، والعياذ بالله، كاشفاً ولعَه بهَا وعشقه لها:

بادئاً.. مَدْحَ الكِتَابَةِ بقصيدتِه:

الغَوَايَة:

لبسَ طاوُساً وَاحِداً..
ولَمْ يُبحْ نفْسَهُ للصَّلاةِ،
وَحِينَ جَفَّتْ حَدَائِقُهُ
نهَشَتْهُ المَخَالِب.
لَمْ يَرْبُط جَبِينَهُ..
وَهُوَ هَائِلٌ بَالجَّنَاح،
فسَلَّمَهُ للسُّقُوطِ..
وَمَارَسَتْهُ الهَاوِيَة.
اصنَعْ بِمَا تُؤمَرُ.. قالَ..كَيفَ؟

فقد جَفَّتْ مَشَاهِدِي
وَهَشَّتْ لِيَ الأرْضُ بِقِبْلَةِ

فِي ألمِ القادِمِين.

كَانَ الهَوَاءُ يُغْلِقُ نافِذَتَهُ،
يَدْهُنُهَا بالرَّتَابَةِ،
حِينَ تَسَلَّلتْ إلى أكْمَامِهِ الأرْضُ.. حَيْرَى
وَهِي تُؤَرْجِحُ بَهْوَهَا..
فِي صَلاةِ نَجْمٍ..
يَمْتَدُّ بِهَا لِحُلكَةٍ مُدَلَّلة.

السَّمَاءُ.. تُعَبِّئُ إنَاءَهَا،
حِينَ وَخَزَهَا بوَرْدَةِ البَرْق،
فأمْطرَتْ غَيْثاً كَمَاءِ الرِّجَال،
وَازْدَحَمَتْ بالحَظَائِر،
كَانَ لِصَوْتِ تَفَتُّحِهَا..
سِحْنَةُ غُبَارٍ أجَشَّ،
نَفَثَتْهُ الشُّقُوقُ

فِي غفلةٍ مِن الطِّين..

وكَانتْ بِدَايَةُ الحِكَايَات.

أخلفتِ الأرْضُ عَلَيْنا ـ قبْلَ السُّكُون ـ التِفاتتِهَا،

وانسَلّتْ حِكْمَةُ الكَوْن،

انْصَرَفتْ إليْنا،

قدْ جَاءَ لِي..

يُمِيطُ عَنْ عَقْلِي السَّكِينة والسُّكُون،

أبرأتُ قلبيَ بالنّشيج،

وَكَتَبتُ مِنْ عَرَقِي قصيدة،

فقامَتْ مِنْ دَمِي الكِتَابَة،

واسْتَبَاحَتْنِي الحُرُوف.

[فِي الطّابق الثّانِي تَعِيش،
الرّقْمُ خَمْسُونْ..
تُرَافِقُهَا يَرَاعَاتُ .. مِن الزّيْتُونْ،
فَهَلْ جَفّتْ مِيَاهُ البَحْر
فِي البَيْتِ الغَرير؟]

هِيَ ذِي تُخَاتِلُ لا يُبَارِحُهَا البَيَاضْ
هِيَ ذِي تُرَاوِغُ ..
بَلْ سَتَخْشَى -حِينَ تَصْفُو- شَهْوَتِي،

هِيَ ذِي تُقَطّبُ جِسْمَهَا
حِينَ أُصَافِحُهَا.. تَخَافْ،

هِيَ ذِي تَصُوغُ تَأَنُّقاً.. سَاقاً

يُحَاوِرُهَا السُّكُون.

هِيَ ذِي اسْتَسَاغَتْ صَيْحَتِي..
لَمَّا دَخَلَتْ قَمِيصَهَا المَلْفُوفَ
طَارَدَتْ الهَوَاءَ!

جَسَدِي تَخَلَّلَ.. فِي المَسَامْ،
فَتَنَاصَ فِي دَمِهَا دَمِي
لِيَقُومَ مَائِي فَوْقَ زَهْرَتِهَا الرَّقُوء.

هُوَ ذَا أَنَا
أَسْتَلُّ رُوحاً

كَي تُصَارِعَ فِي البَيَاضِ خَيَالَهَا..

مَن يَا تُرَى.. ؟
مَا أنْطقَ الأشْيَاءَ ... إلا شَيْؤُهَا.

هَلا تَحَدَّثتُم:
عَن العُشْبِ الَّذِي سَيَسُوسُ ريحاً..
..فِي القريبْ،
عَنْ قهْر شَهْوَتِهَا إليّ،

عَنْ زَهْرهَا المَقْصُوصْ،

عَنْ شَيْئِهَا السِّرِّيِّ..
إن يَّرْمِي اخْتِلاجاً فِي النَّسِيجْ،

عَنْ تِيهِهَا.

إنْ.. سَالَ حَاراً فِي الطُّرُوسْ..

عَنْ غُرْبَةٍ.. طالتْ.. عَلَيْهَا فِي الدُّرُوب.

لستُ المُلِيمَ..
أنْ أبَاغِتَ عِفَّةً حَضَرَتْ فتجْفِلُ..
فِي الحُضُور.

مَاذَا جَنَيْتُ..
وَلِي العَدَاوَةُ فِي مَحَبَّتِهَا ثلاثْ:

مَخَافَةُ النَّاس القَرِيبَة،
والحَلال،
وذِكْرَى خَاتَمِهَا القَدِيم.

لستُ المُلِيمَ..

حِينَ عَرِّيَ آهَةً..

أرَقٌ.. تَخَفَّى فِي الكَلام.

إنِّي أقسَرُ كَوْمَةً تَغلو مِن الضَّحِكَاتِ

تَستُرُ هَمْسَنا المَكْتُوم.

لستُ المُلِيمَ..

مَنْ.. ذِي الَّتِي تَغْوِي..

مَحَاسِنُهَا الدَّفِينَةُ إنْ رَأتْنِي.

مَنْ ذِي الَّتِي قرَأتْ بِعَيْنِي..

كَيْفَ أرْسِمُ خَالَهَا المَفْقُودَ تَعْرِفُ..

سِرَّهُ.. فِي خَاطِرِي.

مَنْ.. ذِي الَّتِي شَعَرَتْ

"مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ"

بِأنِّي..

لَمْ أزَلْ أشْخُبْ..

حَلِيبِيَ فِي الهَوَاءِ حَوْلَهَا.

لا تَأمَنِي..جَسَدِي..

أنا جَسَدٌ..

يحَلِّقُ فِي الهَوَاءِ وَفِي الهَوَى.

هَلا اتَّبَعْتِ رَغْبَتِي..

أنَا مَن يَّصُوغُ المَاءَ يُنضِجُهَا..

وَيَسقِيهَا الدَّلال.

أنَا مَن يُلاعِبُهَا.. لِيَصرُخَ كِيسُ رَغبَتِهَا،

يَئِنُّ رَحِيقُهَا مِنْ وَطءِ نخْلِي.

هَذَا كِتَابِي فِي المَدَى.

هَذَا مِدَادِي فِي رُقَادِهَا ما ابْتَغى..
ورْداً لِغيْرِكِ فِي الصَّلاة.

هَذِى مَعَالِمُ شِقْوَتِي لمْ تَصْطفِي
سِرًّا.. وَتُودِعُهُ الصُّدُور.

هَذَا حَلِيبِي دَسَسْتُهُ بَيْنَ السُّطور،

هُوَ ذَا يُشَارِكُهَا العلاقة، دُونَ عِلْمِي!

لستُ المُليمْ،

أنا – دُونَمَا أدري- طمَثْتُكِ فِي الإناثِ،

تسْعُونَ سَيِّدَةً لأبْحَثَ عَنْكِ

لا أجِدُ الخَرَائِطَ.

سَكَنْتُ بِبَاطِنِ رَاحَتَيَّ مَقَاتِنُ الأشْيَاءِ فِيهَا،

هَلا فَتَحْتِ

كَي أدُقَّ البَابَ دَقًّا..

هَلا سَمَوْتِ

كَي يُبَاغِتَ حُجْبَكِ النَّزْفُ الصَّرِيخْ،

هَلا فَكَكْتِ

عِبْءَ رَغْبَتِنَا قَلِيلاً..

قَدْ سَئِمْتُ زَيْفَنَا،

قَلَقُ الحَمَامَةِ قامَ فِي العَيْنِ الهَتُونْ،
كَمْ حَلَّقتْ لِتَدُورَ تَسْرِي..
فَوْقَ خَاطِرِهَا الشُّجُون،

طَوْقُ الحَمَامَةِ قامَ يَسْتَهْدِي الكَلام،
كَيْلا يَجِيءَ الحَلُّ تَمْتَمَةَ خَجُول.

قَلَقُ الحَمَامَةِ جَاءَ فَسَّرَ فِي كَلامِي اللاكَلام،
"فالصَّبُّ تَفْضَحُهُ.. العُيُون"
تَوْقُ الحَمَامَةِ هَامَ يَغْوي
فِي الكُمُونِ سَرِيرَتِي،
فالقلبُ ألقى..
سِرَّهُ المَدْفُونَ فِي هَمْسِ.. العُيُون.
مَنْ ذِي الَّتِي مَسَحَتْ دُمُوعَ الطَّيْر

إنْ.. تهْمِي علَى..
شَفَةٍ تبُوحُ بِسِرِّهَا المَكْشُوفِ لَهُ.
إنْ التِقاءَ العَيْنِ بالعَيْنِ.. الفَضِيحَة.

هَلْ تَرْتَضِينِي.. كَاهِناً ؟

أنا مَن يُجَسِّدُ لَحْمَهَا المَطْلُوقَ فِي
الحُجُبِ الخَفِيقَةِ.
أنا مَن يُقَطِّرُ حَيْرَةً فِيهَا،

فَيَفتَحُ ظَهْرُهَا المَطلُوقُ.. لوْعَتَهُ الشَّفِيقة،
أنَا مَنْ يُدَاهِنُ قَيْدَ حِشْمَتِهَا.. فتَسْتَلقِي،
أبَاغِتُ شَيْنَهَا حَتَّى تُثَنَّى أرْضُهَا تَبْيَضُّ،
أحْكِي رَغْبَتِي فِيهَا.. كَمَاءِ السَّدْ،

أنا مَن يَّحُوكُ الفَخذَ طمْياً وَحْدَهُ،

يَرْفُو شُقُوقاً فِي الرَّغامِ بدَفْقِهِ،

مَنْ ذَا الَّذِي يَغْزُو مَنَابِرَهَا..

يُؤَذِّنُ للصَّلاةِ ؟

هَلا عَدِلتِ مَجَازِيَ المَأمُورَ.. يَطلُبُهُ الخَفَا.

صَمْتِي تَعَرَّى فِي انْفِرَاطِ قَصِيدَتِي،

أمَّا الطَّرِيقُ فَمَا اصطفَى

يَوْماً سِوَى.. طيْرِي،

وَعُشٍ طافَ بِي يَطفُو..

عَلى مَاءِ الصَّفَا.

مَرَّتْ دَقِيقَتَان..

تَأَخَّرْتُ عَن "التَّوْقِيع" قَلِيلاً..

سَيُوَقِّعُ لِي صَدِيقِي..

صَبَاحاً جَدِيداً.. !

الوَقْتُ بَعْدَ الفَجْر بِكَثِير:

سَيَأْتِي القِطَارُ.. الذِي لَنْ يَمُرَّ سَرِيعاً..

وَسَأَسْمَعُ الشَّاوِيشَ فَوْزِي!

وَسَتَمْشِي "مَسَاءَ الخَيْر"

رَتِيبَةً كَدَقَّاتِ حِذَاءٍ،

حَائِرَةً مِثْلَ بَابِ زِنْزَانَةٍ قَدِيم.

سَتَمْرُقُ الأَشْجَارُ سَرِيعاً،

أمَا أنَا..

فَسَأمُرُّ دُونَ أن يُلقُوا عَلَيَّ -كَعَادَاتِهِم- تَحِيَّةَ المَسَاءِ!

وَسَيَذهَبُ حَزَنُنَا المَنزِلِيّ..

عَادِيًّا مِثْلَ الفُصُولِ!

مَا الّذِي تَغَيَّرَ إذَن؟

وَكَيْفَ.. تَأخَّرَ..

فِي مُقامُ البلادِ ؟

حدَّثنا علاء الراوية قالَ بينما نحن في السّفر الرابع إذا موكبُ الوزير يمرُّ بجانبي، فوقفَ وسألني عن حالي فشكرتُ الله، فدعاني إلى مجلس السلطان. وذهبتُ بعد أيام وحين دخلتُ عليه مجلسه، أمرني بالجلوس.. كان القومُ مجتمعين يخوضون في الفقه مرة، وفي آثار الناس مرة وفي الشعر والبلاغة مرة، وظلّ الحديث رقراقاً تتجاذبه الألسنة، إلى أن بدأ القوم مديحَ السلطان وحكمه، حينها رَقَّ السلطانُ لي حين لاحظ صمتي -قال بعضُ الخبثاءِ بعد ذلك ليته ما فعل- ثم أمرني: اِرْوِ لي ما يُقال في هذا المقام ؟ قلتُ ولكن هل يحتملُ سيِّدي النصيحة! قال إن شاء الله، فقلتُ: أبدأ بقول ابن عباس حين سأله معاوية "ما لكم تصابون في أبصاركم! قال كما تصابونَ في بصائركُم" "أرى السلطانَ وَكأنه يوشك أن يبيع نصفَ داره ليشتري النصف الباقي!" "سأطلق لساني بما خرستْ به الألسنةَ.. إنه قد اكتنفه رجالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة

عسفاً، وخسفاً، هو مسئول عمّا اجترحوا، وليسوا مسئولين عمّا اجترح" فقال الوزير تأدّب، فقلتُ للوزير".. مثل أصحاب السلطان كقوم رقوا جبلاً ثم وقعوا منه فكان أقربُهم إلى التلف أبعدَهم في المرقى" لقد سأل النصيحة، ألم تفهم قول بشّار:

إذا بَلَغ الرّأيُ المَشُورَة فاستَعِن بِعَزمِ نَصِيحٍ أو مَشُورَةِ حَازمِ
وَخلِّ الهوَيْنَى للضّعِيفِ وَلا تَكُنْ نَؤوما فإنّ الحُرَّ لَيْسَ بنائِمِ

فهمس لي الوزير ارفقْ. فقلتُ لو رفقَ بالبلاد فعلهُ لرفقَ به قولي"أنظرْ ما نحن فيه.. وتدبّرْ فيما يقوله الناس عن أرضهم، يقولون "بلدة مُتضايقة الحدود والأفنية، متراكبة المنازل والأبنية، وسخة السماء، رَمِدة الهواء، جوُّها غبار وماؤها طين(...) ضيقة الديار، سيئة الجوار، حيطانُها أخصاص، وبيوتُها أقفاص، وحُشُوشُها مسايل، وطرقها مزابل" أما أهلها فمنهم من غابوا في الحضور، وصدقَ فيهم قولُ جرير":

أبْناءُ نَخْلٍ وَحِيطانٍ وَمَزْرَعَةٍ   سُيُوفُهُم خُشُبٌ فِيهَا مَساحِيها

لَوْ قِيلَ: أيْنَ هَوَادِي الخَيْلِ مَا عَلِمُوا

قَالُوا لأعْجَازِهَا هَذِي هَوادِيهَا

فقالَ السلطان لي، اصمتْ، لقد جاوزتَ الحدَّ "واعلمْ أن سَوطي سيفي، نِجَادُه في عُنُقي، وقائمُه في يدي، وذُبَابُه قِلادةٌ لمَن اغترَّ بي" ، " وايمُ الله إن لي فيكم لصَرْعى فليحذرْ كلّ امريءٍ منكم أن يكون من صرعاي" "لآخُذن البريء بالسقيم حتى يقول الناس أنجُ سعد فقد قُتِلَ سعيد" "فخير السلطان مَنْ أشبهَ النَّسر حوله الجيف، لا مَنْ أشبه الجيفة حولها النسور" فقلتُ: كلاهما شر. "وشرّ السلطان من خافه البريء، وشرّ البلاد ما ليس فيه خِصب ولا أمن" وأنشدتُ لمسكين الدّارميّ:

أقِيمُ بِدَارِ الحَيِّ مَا لم أهَنْ بِهَا وَإنْ خِفتُ مِنْ دَارِ هَوَانًا تَرَكْتُهَا

فهمسَ أحدهم في أذني "إذا أمرك السلطانُ فقلْ له أنا أطوعُ لكَ من اليد، وأذلّ لكَ من النعل"فلمّا لاحظ السلطانُ همهمة من حولي نظرَ إلي قائلاً: "كُفوا ايديكم وألسنتكم أكُفَّ عنكم" "والله لِأعْصِبنّكُم عَصْبَ السَّلَمَة، ولِألحُونّكُم لحْوَ العود،، ولأضْرِبَنّكُم ضَرْبَ غرائبِ الإبل، حتي تستقيمَ لي قناتُكم" صدق الأعرابي حينَ قال! "أجِعْ كَلبَك يَتْبَعْك" فقلتُ "أخشى أن يُلوِّحَ له غيرُك برغيف فيتبعه ويدعك"، وأنشدتُ لعبد الله بن الحسن:

فلا تَحْسَبَنَّ الأرْضَ بَاباً سَدَدْتَهُ   عَلَيَّ وَلا المِصْرَيْن أمَّا أوْ أبا

وقد جاءَ في القول الشريف: "إنما يقع البلاءُ في أمَّة إذا أكلوا الأموالَ دولاً، واتخذوا الأمانة مغنماً.. وأكرمَ الرجلُ مخافة شره، وكان زعيمُ القوم أرذلهم (...) ولعن آخرُ القوم أولهم"،وأنشدتُ شعراً للسّائب بن الرقاع:

أمَمٌ تَدَاخَلتِ الحُتُوفُ عَليْهُمُ   أبْـوَابَهُمْ فَكَشَفْنَ كُـلَّ غِطاءِ
وَالمَرءُ يُورِثُ مَجْدَهُ أبْنَاءَهُ   وَيَمُوتُ آخَرُ وَهْوَ فِي الأحْيَاءِ

فقام السلطانُ غاضباً، ثم أمَرَ بحبسي شهراً جَزَاءً لقولي، أمّا ما حدثَ في السجن فأمر آخر، وبينما أنا واقف ببابٍ من أبوابِ المدينة، أندبُ حظي، وألعنُ لساني على ماجرى منّي أمام السلطان، قاصداً الخروج.. إذا الأمير في موكبه.. وقد مرّ على بابِ طحّان.. فنظر إلى حمار الطحان يدوّر الرّحا وفي عنقه جُلجلٌ.. فقالَ للطحان "لِمَ جعلتَ في عُنق الحمار جُلجلاً،" فقالَ "ربما أدركَتْنِي سَأمَةَ أو نَعْسَة فإذا لم أسمعْ صوتَ الجُلجل علمتُ أنه قام فَصِحْتُ به!" فقال الأمير: أرأيتَ إن قام وحرّكَ رأسَه، ما علمُكَ أنه قائم؟ فقال الطحان "وَمَنْ لِحِماري مثل عقل الأمير!!". فضحكتُ بعد غم، وأنشدتُ لمحمود الوراق، دافعاً الخوفَ عني:

يُحِبُّ الفتى طولَ البَقاءِ كَأنَّهُ عَلى ثِقَةٍ أنَّ البَقاءَ بَقاءُ

إذا مَا طَوَى يَوْماً طَوَى اليَوْمُ بَعْضَهُ

وَيطويهِ إنْ جَنَّ المَساءُ مَساءُ

أما ما فعلته بعد ذلك، فقد تنكرتُ متّخِذاً سيماء الحكماء، وارتديتُ صوتَ كلِّ بلدٍ أزورُها، ونصحتُ أبناءها من فوق المنابر، راوياً لهم ماحفظتُ، متحدّثاً عن شجاعتي أمام السلطان، وإذا قريني يظهر لي، ويسبقني إلى مكاني، واقفاً أسفل المنبر منادياً على الناس، منشداً لكعب، وكأنّي به يتنبأ:

لا يَقَعُ الطّـعْنُ إلا فِي نُحُـورِهُمْ

وَمَا "لَنَا" عَنْ حِيَاضِ المَوْتِ تَهْلِيلُ!

فحِرتُ من فعلتِه، لعلمي أنّه يكرهُ النصحَ، ويبغض الكلامَ فأخذتُ أراقبهُ، كان يمنحُ كلَّ منهم ورقة، عرفتُ بعد ذلك أنه قلّدَ فيها قولَ الناصح للناس، المهتمِّ بشنونهم، وإن كانتْ مقدمةُ كلامه - ولا يخفى ذلك على أريبٍ مثلي- تفصحُ عن غير ذلك، وقد سمّى بلادَه في الورقة.. عابثاً:

الرَّمِيَّة:

مَتَى أشْبعُ مِنْ حُسْنَيَيْهَا مَدَاي ؟
وَأطلِقُ فِي خَامَةِ الرِّيح بَوْحِي.

تَنَأتْ أحْوَالُ قَلبي..
بَيْنَ خَوَافِي الجَنَاح !
فبَرَزَتْ خُطاي.. طِفلاً..
أخْجَلَ عُرْيُهُ النَّاظِرين..

قَدْ كُنْتُ تَحْتَ السُّكُون .
أسْتَرقُ الإشَارَةَ.. تَمْتَمَةً.. دَثَّرَتْنِي،
ثُمَّ اجْتَبَانِي المَدَارُ المُوشَّى بالرَّاحِلِينْ

فَلامَنِي مَكَانِي
وَاقْتَضَّتْ مَعْبَدِي.. الكَاهِنَات..

كَانَ الفُؤادُ حَدِيقةَ عَطشٍ..

وكُنْتُ أجُرُّ عُرُوقِيَ..

فَوْقَ دِمَاهَا دِثَاراً،

وَأعْصِرُ وَقتَ الظَّهِيرَةِ لهَا..

أحْلامِيَ النَّافِرَةَ.

أيُّ مَوْطِئٍ أريدُ لِحُلمٍ..

شَيَّدَتْهُ مَنْ سَكَبَتْ وَرْدَتِي اليَافِعَةَ..

ثُمَّ مَدَّتْ عِطرَهَا..

أفقاً مِن الأشْوَاك.

سَتَمْلأ قلبيَ..

غَيْمَةُ رَجُلٍ لنْ يَطأ الأرْبَعِينَ..

كَيْمَا أجْلِسُ إلى الشَّلال..

يُعَلِّمُنِي كَيْفَ أقطِفُ مِنْ مَوَالِح قَلْبِهَا..!

قدْ جَاءَتِ الَّتِي
رَشَقَتْ تَمِيمَتَهَا فِي مَسَامِيَ

ثُمَّ أطفَأتْ دُمُوعِيَ بِالأُخْجِيَات!

غَافَلَتْنِي الغُيُومُ سَمَاءً..
فَبَزَغَتْ عَلَى وَجْهِي النُّجُومُ الخَفِيَّةَ.

كَيْفَ أسمُو بَخُوراً..
فَوْقَ الَّتِي غَادَرَتْنِي..
وَهُمْ يَأكُلُونَ فَضَائِيَ تَمْراً..
تَحْتَ جِدَارِ الأمُوسِ،

سَأمْلأُ مَنْ أعلنوني انتِحَاراً..
وأعبُرُ ضُلوعِيَ إليْهَا
حِينَ تحِلُّ الجَدَائِلَ..
وَتدخُلُ "طيِّ" الرُّخَام.

انشَقَّ صَوْتُكَ عَنْكَ..
فَهَشِّمْ رَبَابَتكَ فِي قلبِهَا يَتَّسِعْ
يَغْشَى عنفُوَانَ مَدَاهَا..

ليْتَكَ تَنْتفِضُ جَسَداً.. فِي مِئزرَيْهَا،

أوْ تَستَدِيرُ ثقباً يَجْرَعُ أقمَارَهَا..

أوْ.. لا تَكُنْ.. أغنِيَّة

يفتَضُهَا السَّامِعُون:

لا إلهَ إلاكَ.. قالَ،
هُوَ الرَّحِيلُ إذاً،

مِنْ غِلالَةِ النَّـار
صَنَعَ وَجْهاً للتَّسَاؤلِ فِي المَمَالِكِ..

وَالغُرَابُ يَتْلُو عَلَيّ.. مِنْ سِيرَةِ الرَّمْل
وَقَابِيلُ.. يَعْقِدُ مِنْ جَدِيدْ..
تِيهاً تِلْوَ تِيه.. بَيْنَ
اشْتِبَاكِ التُّرَابِ.. بالتَّرَائِبِ..

كِتَابُكَ مَسَّ كِتَابِيَ ،

فَوْقَ الْقَلْبِ قَبَا

■بَادِيَ بَدْوٍ..

لا تَخْفِضْ صَوْتَ الغَابَةِ فِيكْ،

وَحْدَكَ..

قَبْلَ العَالم

سِرْتَ بِسَائِكْ،

عَيْنَاكْ..

مُغْمَضَتَان عَلَيْكْ،

وَقَبْلَ دُخُولِ العَالم لكْ،

لقطتكَ الأمُّ كَمَا لقطكْ..

مِنْ قَبْلِ الأمِّ- أبُكْ،

هَذِى سُنَّةُ أرْضِكْ،

لَيسَتْ سُنَنَكْ.

□إنْ بَرَّحَ أمْرُنا بِكْ..
إنْ غابَ مَخَاضُ صَعِيدِكَ،
أو نَوْرَجُ صُعْدِكْ،

■لا تَتَلَيَّنْ.. واشْأَنْ شَأْنَكْ،
لكَ مَنْسَكْ،
مَا أنتَ عَلَيْهِ الذَّابِحُ،
[صَبْوَتُكَ وَصَبَبُكْ]

□الرَّمْلُ قِشْرُ دَمِي،
يَفْرَقُ مِنِّي..

يَتَلوَّى عَطشاً مِنْ عَطشِك،

■ *لا تَختَرْ مِنْ نيلي أرْضاً*

لا تَتْرُكَ لِطَمْيكَ..

أرْضاً..مَا إنْ تَتَّسِع الطُّرُقُ إليهَا تَضيقْ

□أعْلَمُ أنّي نُوتيٌّ..

أبْعَثُ وَحْدِي..

■فاستَغْش..

فَوْقَ مِيَاهِكَ.. قَلبَكْ

وَإنْ أغْوَاكَ غَرِيبٌ شُحَّ..

وَلا تَهْمَا غَيْمَكْ،

وَإنْ خَطوٌ أنسَاهُمْ عَنكَ..

يَسْطو عَلَيْكْ،

اسْكُبْهُ..

وإلا تَسَدُّوا عَلَيْكْ.

ضَعْ عَيْناً فَوْقَ مَدَاكَ يُسَد.

وَأفسَحْ فِيكَ سَمَاءَكْ،

لا تَهْمَلْ..

وَتَمَهَّلْ..

وَتَدَبَّرْ مُهْلَكْ.

□ عُنُقُكْ.. !

عَيْنَــاكْ.. !!

وَتَحْتَ أصَابع كَفَّيْكَ مآذِنُ،

وَمَسَافَاتٌ..

تَشَقَّقُ تَحْتَ مُلاءَةِ حَزْنِك..

■هَذَا قَوْسُكَ

بَيْنَ فِئُونِ الأَشْيَاءِ تَفَرَّقْ،

هَذَا وَتَرُكْ،

يَتَرَقْرَقُ..

بَيْنَ صَبَابَاتٍ.. وَهَوَاك.

□*هَذِي قَدَمٌ..*

يَتَعَرَّقُ مِنْ تَعَبِي فِيهَا الغَيْمُ

■فَتَأَمَّلْ نُورَكْ..

مِنْ فُسْحَةِ حُزْنٍ..

يَتَوَارَي تَحْتَ ثِيَابكْ:

باسْم دَمٍ يَتَدَلّى..
مِنْ.. دَار حُفَّ القَشُّ عَلَيْهَا..
وَ مُزُّ عُرُوق الطّين،

ع خَبَرَكْ،
وَتَجَلّدْ..
مِنْ فَوْق مَسَاطِبِ حُلمِكْ،

وارْمِ عَنْكَ غُلقكْ..

□ أعْلمُ أنّي..
إن لَمْ أسِر بِعَقْلِي،

لَنْ -بَيْنَ سَرَابَيْنِ- يُسْرَى بي.

■فتَأمَّلْ وَجْدَ سَوَاقِيكَ..
تَأمَّلْ هَرَبَكْ..

إنْ مَدَنَ الحُسْنُ مِنكْ..
أوْ عُنِّنَ عَنْ "إمرَأتِكْ"..
هَدَرَكْ،
فتَأمَّلْ
فوْقَ لَيَائِلِنا سُنَنَكْ:

عِشْ كَالذَّنبْ!
عاهِرْ مَنْ.. تَتَعَهَّرْ!
إنْ.. سَألوكَ تَغَفَّلْ!

أترُكْ أبَكَ
وانْجُ بِعَيِّلِكَ،
وَانْجُ بِمَرَتِكْ !

تِلكَ مَقاييدُكَ،
غطِهَا فِي النّار
وَرُجَّ كَمَا لَمْ..،
واستَغنِمْ!

□لوْ غَابَ القَاتِلُ فِيَّ..
تَخفّى.. وَتَلبَّسَ وَجْهي!

■ارْمِ مَلامِحَهُ مِنْكَ!

وَسَطِّرْ..
تَحْتَ أسَارِيرِكَ..
سِرَّكْ.

□ما أنْوَكَهُمْ،
مَصَّانِينَ وَمَصَّانَاتْ!

■لاتخْفِضْ لهُمو جَنَاحَكْ،
تِلْكَ سَوَانِيكَ وَسُقْيَاكْ!

مُجِّ القِرْبَة،
لاتُسْتَكْرَه،
واشْرَبْ مِنْ.. غَيْمَتِهَا سَمَاكْ،

واستنشق إلهاً
يَسفِكَ..

□يتَعَرَّي عَطشِي:
هَلْ أنزِعُ مِنْ أطفال "الجار السَّو"..
حَشاهُمْ.. نزْعَاً..!
آخُذُهُمْ.. لِحَشَاي،
افقاً فِي أعيُنِهِمْ.. حُلماً..
نازِعَ حُلمِيَ؟

■ سَألتُكَ ألا فعَلتَ..
حُرَمٌ فِي هَاجِرَتِكَ..
تَتَصَبَّاكَ..

وَلا.. تَتَصَبَّى ضَهيَّك.

□إنْ مَدَنَ القَلبُ..
مَرًّا أو مَرَّيْن..فلا..

■إنْ مَدَنَ اللبُّ مِنْكَ وُطِيء.
"ما صَحَّ عَلَيْكَ –وَلا- إلا..
مَا صَحَّ لإبْلِكْ"!

فاخْتَرْ رَائِحَةَ لِحَرِيق..
لَمْ فِي لَيْلِ-
يَتَخَوَّنكَ
أوْ يَتَخَوَّفْ مِنْكْ..

وتَفَرَّسْ تَحْتَ غِطاكَ

وظِلِّكْ،

ظِلُّكَ..

فِي غُرْبتِّها لأمَكْ،

صَدَّقَهَا..

صَدَقكْ،

إنْ.. تُرْعَدْ مِنْهُ

يُرْعَدْ مِنْكْ!

□مَتَّى أسبي نِسَاءَ القاتلِ سَبْياً؟

أفتَحُ طمْيَكَ سَبَباً؟

أسحَبُ مِنْ..

تَحْتِ وسَادَتِنا عُرُوقِكَ.. عِرْقاً؟

متَّى أرَتِّبُ فوْقَ مُلاءَتِكَ..

قبَائِلنا صَفًّا،

وَخُيُولَ خُطاكْ؟

■ هلاّ وَشَمْتَ بالمُرِّ فضَاكْ،

عَرَّيْتَ عَليْهِ الرَّأسْ،

وَكَدَمْتَ عَليْهِ دُعَاكْ،

وَطحَنْتَ الغيْمَةَ لِمَدَاكْ،

لِتُجَلِّي مَفرِقَ لحْمِكْ،

تلأمُ مَا بَيْنَ سُعَالِ هَوَاكْ..

إنْ.. صِحْتَ بِلا..

بُحَّةَ سَيْفِكْ،

□كَي أحْرقَ قلبَ قبَائِلِهِمْ..
فوْقَ قبَائِلِهِمْ!!

■فتَحَرَّكْ..
لاتتَحَرَّجْ.
إنْ.. صَبَّحَكَ الْخَبَرُ،
أوْ شَيِّئَتِ الأشْيَاءُ عَليْكْ..
سَألتُكَ
أنْ.. تبْريَ عُودَ بَصِيرَتِكَ،
وَتَحُكَّ ثقابَكْ،

فتعَلَّمْ فثيَاكْ؛
إنَّكَ لَمْ..

فِي مَعْبَدِهِمْ..
عَلَّمْتَ إلا فتِيتَ دَمِكْ.

لَسْتَ مَنِ اسْتَرْسَمَ
فِي وُكُنَاتِ الحُلْمِ..
دُمُوعَ النَّاسِ وَحَزَنَكْ.

لَسْتَ مَنِ اسْتَحْرَقَ..
فِي نُونِ يَكُوُن،
خَفْقَ الجِلْدِ الحَي..
وَبِخِلْعَتِهِ الفَحْمَاءْ،
لوَّنْتَ وَجْهَ الأرضِ.. بِهَا
بَلَداً بَلَداً،
وَبَلاءَ بَلاء.

□وَلَسْتُ مَنْ قسَّمَ
بَشْرَةَ هَذَا البَحْرِ..
أو جَمْرَ الأرْضِ..
وَشَقَّ سَمَاءَ اللهْ.. !

"مَلاَنْ" -يَاالعَرَبِيُّ- مَدَاكْ !
وَتَحْتَ العَرْشِ..
يَنِزُّ النِّيلُ دَمَكْ!

■ إن فكَّ عَلَيْهِ
سَقْفُ النَّار بَدَا،

لاتَدفَعْ عَنْك،

طهِّرْنا باسْمِ المَاءْ،
إن قلَّدَ بَحْتَ الطِّين بَرَاً.
إنْ.. رُمتَ ولايتَكَ،
اكْتَنِفْ فَحِيحَ دَمِكْ،
وَلا تَحْلِبْ..
تَحْتَ أوَانِيهِم ألمَكْ.

□مُتَّهَماً بَالصَّحَرَاءِ..
أمْ مُتَّهَماً بِدَمِكْ!

■لا تَستَدْفِعْ..

يَا الأدْهَمُ يَا نِصفَ دَمِي

لا تَدَّافعْ،

لا تَدَّفعْ،

وَاقدَع.

□ *تَحيَا الشَّمْعَةُ..*

دُونَ حَيَاةٍ

قبلَ أنْ . .

تَمْتَدَّ إليهَا ذِرَاعُ النَّار

وَحِينَ تَعِيشُ..

تَمُوتُ.

■فاعْلمْ أنّك..

حِينَ تَشُدُّ اللوْنَ الدَّامِي..

مِنْ.. شُرْفَتِهِ..

لِبَقِيَّةِ أَلْوَانِ الأَرْضِ لِيَهْدَأَ.

يَتَكَاثَرُ

لا يَتَكَسَّرْ !

□فَاسْتَقِرَّا فِي النَّارَيْنِ مَصِيرِيَ،

بَيْنَ النَّارِ عَلَيَّ وَمِنْكَ..

أَسْتَقِرَّا مِصْرِي.

■اِنْهَضْ.

مَلاَنٌ.. يَالعَرَبِيُّ دَمُك.

■□مَلاَنُ دَمُكْ!

دَقِيقَةٌ أُخْرَى تَمُرُّ.
أَشْعُرُ بِآلامِ خُطايَ!
يَجِبُ أَنْ.. تَتَوَقَّفَ عَنِ التَّدْخِينِ..
كَيْفَ..

وَأنا لَمْ أتَوَقَّفْ -دَقِيقَةً- عَنِ المَوْتِ ؟

سَأُكْمِلُ.. فِي مَأتَمِ صَدِيقِي..
صَرْفَ بَاقِي الذِّكْرَيَات.
نَسَيْتُ سَبَبَ وُجُودِي !

كَانَ صُرَاخِي المُلَوَّنُ
يَتَلاشَى بَيْنَ الدُّخَان ،
وَأنَا أكْتُمُ ضَحِكَةً بِسِعَةِ الحُضُور!

رَائِحَةَ الشُّوَاءِ مِنْ جَدِيد!

أسْنَانِي مُتَآكِلة.. !

وذاكِرَةٌ لمْ أعُدْ أقوَى عَلَيْهَا!

فجْأة، وَلِلحظةٍ كَامِلةٍ..
مَلأ وَجْهِي المَكَانَ،

رَأيْتُهُ فِي نوَافِذِ القِطارَاتِ الّتِي..
نبَتَتْ عَليْهَا وُجُوهُ الزائرين.

النّافِذةُ مَرَقت..
والجَلِيسُ انْتَبَهَ!

شَئٌ مَا نهَضَ عَلَى رَأسِي بهمَّةٍ..
تَمَاوَجَ..
مِثْلُ جَدِيلَةِ البَحْرِ البَيْضَاءِ،
جَدِيلَةٌ تَسْقُطُ..
مُخَلَّفَةً وَرَاءَهَا..
بَعْضاً مِنْ.. عِظَامٍ هَشَّةٍ،
وَمَا الْتَصَقَ بِالجَسَدِ مِنْ..
شَهَوَاتٍ قَدِيمَةٍ،
كَانَ القِطَارُ مُكْتَظًّا بِالبَحْرِ..وَالمَرَايَا !

نَعَمْ.. قَدْ تَأَخَّرَ كَثِيراً..

مُقامُ القصِيد!

حَدَّثنا علاء الراوية: بينما نحن في السّفر الأخير، في مجتمع لنا نتحدث انضمتْ إلينا رفقة من صفوةِ رجال الأدب والبلاغة فجعلنا نتذاكر الشعرَ ومعانيه، وقد وقف علينا كهلٌ يسمعُ عرفتُ بُعَيْدَ ذلك أنه قريني، فلما اشتدَّ حديثُ القومِ أنشدتُ لبشّار[2]

وَشِعْرٍ كَنُورِ الأرضِ لاءَمْتُ بَيْنَهُ

بِقَوْلٍ إذَا مَا أَحْزَنَ الشِّعْرُ أَسْهَلا

ثم أنشدتُ لأبي تمام:[3]

كَشَفْتُ قِنَاعَ الشّعرِ عَنْ حُرِّ وَجْهِه

وَطَيَّرْتُهُ عَنْ وَكْرِهِ وَهُوَ وَاقِعُ

وأنشدتُ لتميم بن مقبل:

إذَا مِتُّ عَنْ ذِكْرِ القَوَافِي فَلَنْ تَرَى

لَهَا قَائِلاً بَعْدِي أَطَبَّ وَأَشْعَرَا

---

[2] "توفي 784 مـ".
[3] "توفي 845 مـ".

فقال الخليل[4] "الشعر حلية اللسان، ومدرجة البيان، ونظام الكلام، مقسوم غير محظور ،ومشترك غير محصور، إلا أنه في العرب جوهري، وفي العجم صناعي" فأثنيتُ عليه وأنشدتُ لأبي تمام:

وَلَوْلا سَبِيلٌ سَنَّـهَا الشِّعرُ مَا دَرَى

بُغَاةُ النَّدى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَـى المَكَارِمُ

فقام الكهلُ وعلى وجهه ابتسامة ماكرة، وسأل أبا الريحان البيروني[5] عن الشعر الهندي وعروضه فقال".. هم يصورون في تعديد الحروف شبه ما صوره الخليل.. للسّاكن والمتحرك وهي هاتان "> ا" (...) ومِثاله أنّا نعبر عن قوالب الخفيف السالم التام بأبنية الأفاعيل في كل واحد من عروض ونقول:

---

[4] "تـــوفـــي 786 مـ".

[5] "تـــوفـــي 1048 مـ".

فاعلاتن   مستفعلن   فاعلاتن

1010010   1001010   1010010(6)

<< ا<   < ا<<   <<ا<

وهي مقلوبة، وإنما طوّلتُ في الحكاية (...) ليُعرف أن الخليل بن أحمد كان موفقاً في الاقتضابات! وإن كان ممكناً ان يكونَ سمع أن للهند موازينَ في الأشعار!كما ظنّ به بعضُ الناس!! فقالَ أبو العلاء المعري(7) مخاطباً الخليل "لمَ سجّلتَ ما استحدثه الشعراءُ من أوزان المقتضبِ والمضارع" وتركتَ قصائدَ أخرى لا توافقُ مذهبكَ في العروض، مثل قصيدةِ عَبيد "أقفرَ مِنْ أهْلِهِ مَلْحُوبُ" وقصيدةِ عدي بن زيد العبادي"قدْ حَانَ أنْ تَصْحُوَ لوْ تُقصرْ" وكذلك قصيدة المرقش "هَلْ بَالدِّيار أن تجِيبَ صَمَمْ"! فإذا التبريزي(8) يقولُ ونونية سُلميّ بن ربيعة أيضاً"إن شُوَاءَ

---

[6] انظر الأصل

[7] "توفي 1075 مـ".

[8] "توفي 1108 مـ".

ونشْوةً" وقبل أن يسترسلَ دخلَ الجاحظ(9) –وكان قد تأخّر قليلاً – قائلاً "أيها الرفقاء" المعاني مطروحةً في الطريق إنما الشأن في إقامةِ الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولةِ المخرج وصحّةِ الطبع، وكثرة الـ..." فأنشدتُ لأبي تمام:

إنَّ القوافِيَ والمَساعِيَ لمْ تَزَلْ   مِثْلَ النِّظامِ إذا أصابَ فَرِيدَ
هِيَ جَوْهَرٌ نَثْرٌ فَإن أَلَّفْتَهُ   بالشِّعْرِ صارَ قَلائِداً وعُقُودَ

فقالَ عبدُ القاهر موجّهاً كلامَه إليَّ " انظر الجاحَظ كيف أسقطَ أمرَ المعاني،وأبى أن يَجِب لها فضلٌ،فاعلمْ يأخي أنه إن كان العمل على ما يذهبون إليه، من أن لا يجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى.. فقد وجبَ اطّراح جميع ما قاله الناسُ في الفصاحة والبلاغة، إن فضلَ الشّعر بلفظِه لا بمعناه!" فأنشدتُ لابن ميّادة:(10)

فَجَرْنا يَنابِيعَ الكَلامِ وَبَحْرَهُ   فَأصْبَحَ فِيهِ ذُو الرِّوايَةِ يَسْبَحُ

9"توفي 868 م".
10"توفي 766 م".

حينها نهض عبد القاهر الجرجاني [11]" قائلاً "ينبغي أن ننظر إلى الذي يقصدُ واضعُ الكلام من أن يحصلَ له من الصورة والصفة! أفي الألفاظِ يحصلُ له ذلك!أم في معاني الألفاظ.. " فقال أبو العتاهية[12] وعلى وجهه سيماءُ التأمل "أكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون، *ولو أحسنوا تأليفه* كانوا شعراءَ كلّهم. فسألَ الكهلُ ثانية "أيمكن للوزن أن يكون محصوراً بما وضعه الخليل فقط ؟" ولَم ينتبه أحدٌ للسؤال، فقال ابن قتيبة[13] لأبي العتاهية "لقد رويتُ عنك شعراً يخرج عن أعاريض الشعر وأوزان العرب، كنتَ قد قلتَه حين قعدتَ يوماً عند قصّار فسمعتَ صوتَ المدقة وحكيتَ ذلك في ألفاظ شعرك" قال أبو بكر الصولي[14] متعجباً: لكنّكَ قلتَ يوماً إنك أكبر من العروض.. بل لك أوزان لاتدخل فيه..

---

[11] "تـــــوفــــــي 1078 مـ".
[12] "توفي 825 مـ".
[13] "تـــــوفــــــي 889 مـ".
[14] "تـــــوفــــــي 946 مـ".

" فأثنى على فطنته أبو الفرج الأصفهاني:[15] " وله أوزان ظريفة قالها مما لم يتقدّمه الأوائلُ". فقال الكهلُ"صدقتَ، فما يستحسنه الإنسانُ يتغيرُ باختلاف الأزمنة والطباع، ولا يعرفُ الثباتَ، وللفصاحةِ نغمٌ أوسعُ مِنَ الوزن، فقد يتطابقُ البيتان في الوزن على ما بهما من بَوْنٍ في الفصاحةِ والبيان". حينها قال القاضي أبو بكر الباقلاني"[16] "إن الشّعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه، لأنه لو صح ان يسمى كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتّزن بوزن الشعر أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض كان الناسُ كلّهم شعراء" فأنشدتُ:

والقَـوْلُ يَحسُنُ مِنْـهُ فِي مَنْـثُـورِهِ

ما ليسَ يَحسُنُ مِنْهُ فِي مَوْزُونِه

فقالَ أبو عابد الكرخي"النثر أصل الكلام، والنظم فرعه والأصل أشرفُ من الفرع.." فقاطعه بن طباطبا العلوي

---

[15] "تـــــوفـــــي 967 مـ".
[16] "تـــــوفـــــي –وفي ذلك خلاف- 1013 مـ".

[17]"اعلم أن الشاعرَ يمنحُ المعنى الذي يريد بناءَ الشعر عليه في فكره نثراً، ويعد له ما يلبسه من الالفاظ التي تطبقه والقوافي التي توافقه.." فوافقه كل من ابن جني[18] وقدامة بن جعفر[19] وأبو هلال العسكري[20] وبعضٌ من الجالسين الذين لا يتسع المقامُ لذكرهم، كما استحسن الكلام ابن رشيق القيرواني[21] وأضاف "الشعر يقوم *بعد النية* من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن، والمعنى، والقافية" ووافقه السكاكي[22] فأنشدتُ لكعب بن زهير:[23]

نُثقّفُها حتّى تَلينَ مُتونُـهَا   فَيَقصرُ عَنـهَا كلُّ مَن يَتَمَثّل

ثم أنشدتُ للخنساء:[24]

---

[17]"تـــــوفـــــي 932 مـ".
[18]"تـــــوفـــــي –وفي ذلك خلاف- 1001 م".
[19]"تـــــوفـــــي 948 مـ".
[20]"تـــــوفـــــي بعد 1005 مـ".
[21]"تـــــوفـــــي 1063 مـ" .
[22]"تـــــوفـــــي 1228 مـ".
[23]"توفي 645 مـ".
[24]"توفيت 664 مـ".

فعاود قريني تدخله في الحديث، وسأل عن معنى الوزن، وما يفرقه عن الإيقاع،وكيف يراه كل منهم، وماحدّهما في الشعر؟ فلم يجبْه أحد، فسألَ ثانية عن النغم الشعري واختلافه بين الأمم، وتباينه من زمن لآخر؟ ولم يشفِ وقاحته أحد، هنا تنبّه السّكاكي أن الخليل لم يزل مطرقاً فقال لتلميذ له بصوتٍ مسموع".. إياك إن نُقلَ إليك وزنٌ منسوب إلى العرب لا تراه في الحصر، أن تعد فواته قصوراً في المخترع "الخليل" فلعله تعمد إهماله.." فابتسم الخليل حتى بدتْ نواجذه، فقمتُ فرحاً، وأنشدتُ لعِقال بن هاشم القَيْنِيِّ مقرباً المعنى، وأنا أنظر إلى قريني متشفياً:

فَلِلسَّابِقِينَ الفَضْلُ لا يَجْحَدُونَهُ وَلَيسَ لِمَسْبُوقٍ عَلَيهِم تَبَجُّحُ

فقاطعني القاضي الجُرجَاني[25] معترضاً ".. ولكن لولا أن أهل الجاهلية جدّوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة

[25] "تـــــوفــــــي 1001 مـ".

والأعلام والحجة، لوجدتَ كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ومردودة منفية لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفي الظنة عنهم، فذهبتِ الخواطر في الذود عنهم كل مذهب، وقامتْ في الاحتجاج لهم كل مقام وما أراك أدام الله توفيقك! "فقطعتُ استرساله منشداً لزهير (26)

مَا أرَانَا نَقُولُ إلا مُعَاراً أوْ مُعَاداً مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُوراً

فأطرق الخليل مفكراً فسأله قريني: ترى هل كنتَ تدرجُ ما استحدثه الشعراء وشاع بين الناس بعد ذلك.. وإن لم يوافقْ أوزانك وبحورَك؟" فتجاهلَ الخليلُ السؤالَ، فقالَ العسكري" ليس لأحد من أصناف القائلين غِنىً عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصبّ على قوالب من سبقوهم" فأنشدتُ موافقاً:

قَدْ يَقْرِضُ الشِّعْرَ البَكِيءُ لِسَانُهُ

وتُعْيي القَوَافِي المَرْءَ وَهُوَ خَطِيبُ

---

[26] "توفي 627 مـ".

وذكرتُ بيتَ دِعْبل:[27]

إنّي إذا قلتُ بَيْتاً مَاتَ قائِلُهُ   وَمَنْ يُقالُ لَهُ.. والبَيْتُ لَمْ يَمُتِ

فقام ابن رشيق القيرواني مستكملاً حديث العسكري "للشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة معلومة لاينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها، كما انّ الكتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها! إنما الشعر ما أطرب، ومن حُكْم الشاعر أن يكون حلوَ الشمائل حسنَ الأخلاق طلقَ الوجه! مأمونَ الجانب! وطيءَ الأكناف فإن ذلك ما يحبّبه إلى الناس، ويزيّنه في عيونهم، ويقرّبه من قلوبهم. وليكن مع ذلك شريفَ النفس، لطيفَ الحسّ عزوفَ الهمة، نظيفَ البزة، أنفاً لتهابه العامة! وليعلم السامعون أن للشّاعر أوقاتٍ يسرعُ فيها أتِيُّه، ويسمح فيها أبِيُّهُ منها أوّل الليل، ومنها صدر النّهار قبل الغداء! ومنها يوم شُرب الدواء! ومنها الخلوة في الحبس والمسير! ولهذه

[27] "توفي 861 مـ".

العلل تختلف أشعار الشاعر.. وليأخذِ الشاعرُ نفسَه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسبِ وأيام العرب، ليستعمل بعد ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم. وقد سُئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء فقال: هو الرّاوية" فسعدتُ لقوّةِ حجّتِه، ورجاحةِ رأيه، واكتفيت بما حصّلتُه من علمٍ غزير، وقولٍ نافع، وعندما نويتُ القيامَ، وصلَ إلى مسامعي حديثٌ عابرٌ بين أعرابي وفارسي،كانا قد حضرا الجلسة معنا، قال الأعرابي "الشعر للعرب، فكلّ مَنْ يَقولُ الشعرَ منكم فإنما نزا على أمِّهِ رجلٌ منّا"، ففرحتُ من فطنة الأعرابي، فإذا الفارسي يقول: "وكذلك من لايقول الشعرَ منكم فإنما نزا على أمِّه رجلٌ منَّا" فقلتُ في نفسي سأكتم هذا الخبر، ترى.. كم سيتضرر الشعر لو صدَّق الناس هذا الكلام وقرروا الرواية! في هذا اليوم.. قابلتُ قريني وجهاً لوجه بعد فِراقٍ طويل بيننا، وكانَ من عادتِه أن يتنمَّرَ لي، بالرغم من

أنني لم أحَمّقْهُ يوماً، لكنه كان باش الوجهِ على غير عادته معي، فدَهِشْتُ لذلك، ولمَّا رأى تعجُّبي، أخبرني أنه جَفا الرُّواية، بعد أن أمنئهُ الكتابةَ، وأصبحَ منهُوماً بها، وأنه ترك الرّواية لي غير نادم، ثم قامَ فجأة، ومشى صامتاً، فوقفتُ أخْزُرُ إليه، وَسِرتُ أنا الآخر في طريقي كَدِيراً بَعْدَ أن عَسُرَ عليّ رحيلُه، فقد كانتْ لي فيهِ حَوْبَةٌ، وكان نعمَ الخصم والخَدِين، فلمّا نظرتُ خلفي أودّعُهُ، رأيتُ الأفقَ يشيرُ إليه هذه المرة، وهو يردد من "*حَلِيبِ الرَّمَاد*" :

"لَيْسَتْ فِي مَمَالِكِكُمْ ثُقُوبٌ تَدْخُلُهَا التَّوَارِيخُ"

وَكانَ..

المرُورُ الخَفِيف:

فقد كانَ النّسيانُ ذاكِرَةً

والضّوْءُ مُقشّراً

والحوَاسُ مُعْتِمَةً

حِينَ أرْهَفَ الليْلُ قوَامَهُ،
فنضَحَ طيْفَهَا..
وَطفقَ يَجْمَعُ فِي مَائِهَا بَحْرَهُ.

خلعَتْ عَنْهَا نهَارَهَا تسْتحِمُّ !
فرَابَط ليْلُهُ..
طوْقاً لِمَوجِهَا المُنْتحِرِ،

وَأَثقلتَ تُحَاصِرُهُ الأضحِيَاتُ..

وَحِينَ أفَاقَ..
كَانَ قَدِ استَبَدَّ بِهِ
عَطَشُ الأوَّلِين.
فَنَصَبَ لِنَفسِهِ قَصِيدَةً لا تَلتَئِم..

يَفتَحُ أشيَاءَهَا فِي الحُرُوفِ..

وَيُبَاغِتُ شَوَاطِئَهَا السَّاكِنَة.
وَفِي غَفلَةٍ مِنهُمَا،
نَمَتْ بَيْنَهُمَا شُجَيْرَةٌ..

تَهَجَّتْ لَوْنَ الرَّبِيع.

مازلت أعصُرُ جَوَّ النَّهَار،
أسَمِّي ضِيَاءَ الفصُول
وبَيْنَ سُطوري أسِيرُ،
إلى كُوَّةٍ تحتَ فيْءِ المَدَارسْ،
إلى غُرْبَةٍ تشتَهِي.
ولا تمْتَطي مِنْ غسِيلِ الكَلام..

الكَلامَ،

فلنْ يَقرُصَ القلبَ شَدْوُ البيَانُو القدِيمْ
ومَا مَنْقدٌ فِي السَّرَابِ، المَرَايَا، الرُّخَامْ،
قصِيدِي لهُ سِرُّهُ!
ولكِنَّهُ سَوْفَ يَعْلو لِحرْفِي،
لِذَاكَ الّذِي لمْ يَقعْ فِي الشُّبَاكْ،
ويَحْنُو عَلى الدَّفقةِ النّازفةِ!

لِمَنْ أحتكِمْ؟

إلى الآخَرين!

أنا لم أحكِّمْ..

عَلى غيْر نفسِي،

لأختلجَ هَذِي اللغاتِ فتصنفو :

لِنصٍ يَحُلُّ المَدَى، مِنْ فضَاءٍ قدِيمْ،

لِغيْن الكِتابِ،

لِزَادٍ صنَفا فِي حَلِيبِ الرَّمَادِ،

لِسيرَةِ مَاءٍ..

وَمَا -فِي مُقام المَدَى- قدْ تداعَى.

لأوْرَادِ عَاهِرَةٍ تصْطفِينِي.

لِسِفْر هَمَى في النُّبُوءَةِ.. وامْرَأةٍ

لا يَجِفُّ الرُّضَابُ عَلى حَرْفِها!

صِفاتُ الينابيع فِيْهَا،
ولَمْ يَكْتشِفْهَا العَطشُ،
لِثَدْيٍ،
فَهَلْ نَدَّعِي مِنْ حَلِيبِ الطُّفُولَةِ..
نَغْنَغةً فِي الكَلامِ
لِكَيْمَا تَمُرُّ النَّشِيدَةُ؟

فَمَنْ.. غَيْرُنا
سَيَبْنِي.. مِنَ الشَّوْكِ وَرْداً!
سَيَرْمِي أثاثَ الكَلامِ العَتِيقِ خَرَابي،
وَصَوْتِي يُعَرِّي بِمَا شَقَّ لَحْمَ المَدَى،
وَحِينَ تُعَزُّ المَنَافِي بَنِي،
عُزْلَةٌ فِي القَصِيدَةِ.

فَلَمْ يُبْقِ مَاوْكِ مِنِّي سِوَى هَيْئَةٍ للصَّخَبْ،
أو سَحَابِ "المَرَايَا" العَقِيم،

لِذَا قَدْ يُطِلُّ الرُّخَامُ..
[حِينَ مَدَّتْ لَنَا الشَّمْسُ شَيْئاً]
وَكِيسٌ قَدِيمٌ دَنَا مِنْ.. رُغَاءِ الأغَانِي!

سَأغْرُبُ عَنْ لَمْعَتِي الكَاذِبَةِ،

فَهَذَا لِجُثَّتِنَا فَاطمَئِنِّي.. إلَيَّ

وَهَذَا دَمَارِي..الَّذِي..

قَدْ يَبِينُ.. لِكَيلا يَبِينْ!

فلنْ.. يَقْضَمَ الذّئبُ صَوْتِي..
سَيَنْزُو عَلى لحْمَةٍ مُطمَئِنَّةٍ.

فإنّي وُلِدتُ لأعْرفَ..
أنّي أعَادِي العُهُودَ،

أنادِي عَلى البَحْرِ.. مَائِي..
فيَقْسُو لِوَقْتٍ،
وَمَا أشْتَهِي غيْرَهَا..
ولَوْ خِفْتُ مِنْهَا الصُّرَاخَ..
ففِي الرُّوحِ بَسْمَتُهَا الهَادِئَة.

فمَا أحْسَنَ الشِّعْرَ..
إنْ حَدّقتْ فِي المَرَايَا..

"عيونٌ تشبّكُ أحزانها في الكلام!"
فإيهِ قريني الّذي لمْ يَعُدْ!
بماذا تُفيدُ الثّلاوينُ إن لَمْ نجسّ القرَحْ،

أوْ نُكتشفْ عَوْرَةُ الأرْخبيل؟

فذرْني أهيّيءْ جُسومِيَ..
تِلكَ الّتي تنتهي فوْقَ هذا البَياضْ،

ألا تغفري القضلَ فينا

فإنّي انتفضتُ بنخلي

وإنّي اجْتنابي الحريق؟

ظلّتْ دَقِيقة وَاحِدَة،

الآنَ

لا أميّزُ صَوْتًا غيْرَ انْتِظاري!

دَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ..

سَألوذُ فِيهَا بِشُرُودِي..

الوَقتُ قرُبَ الليْل بكَثِير ،

نِدَاءُ القِطار مُلِحٌ،

لكِنَّ القِطارَ بَاغتنِي.. هَذِهِ المّرة

وَقدِمَ مِنَ الرَّصِيفِ المُقابل.

يَا إلهي !

ابْنِي مُنذُ سِت دَقائِقَ.. فِي انْتِظاري..

وَلَمْ أشْتَرِ لَهُ ـبَعْدُ- وَقْتاً لِلحَلْوَى !

أعْوَادُ البُوصِ تتَحَلّقُ حَوْلِي رُوَيْداً،
تَحْجُبُ عَنّي مَاضِياً يَضِيقُ شَيْئاً.. فَشَيْئاً..
كُلّمَا اتّسَعَ حَدِيثِي لِنَفْسِي!
لِمَاذَا يَعْلو صَوْتُ سَاعَةِ يَدِي هَكَذَا:
فَلَمْ تَزَلْ..
ثوَانٍ قَلِيلَة!

لِمَاذَا لَمْ يَأتِ "أبي!

لِمَ تَأخّرَ كَثِيراً؟

[أخَذَتْ يَدٌ تضغط عَلى قلبي بقسْوَةٍ،

وَأنا ألمَحُ شَخْصاً مَا..

قادِماً مِنْ.. بَعِيدٍ..

ليْسَتْ لهُ مَلامِحُ أبي!]

فلَمْ يَكُنْ

قدْ تبَقَّى لي

سِوَى دَقَّةٍ وَاحِدَة !

" # "

الرَّاوِيَةُ يَرْثِي قَرِينَه

رَثَيْتُكَ يَاقَرِينُ وَلا أصَادِي وَلَمْ أكُ مَنْ جَفَاكَ، وَلَمْ تُعَادِ
تُدَثِّرُ دَقْقَةَ الشَّهقاتِ صَدْرِي وَكَمْ خالَعْتُ فِي صَحْوِي رُقَادِي
لِمُعْتَقَلِ اللِّسَانِ بغيرِ شَكْوٍ طَوَاهُ الوَقْتُ يَاتِي فِي سُهَادِي
فَكَانَتْ دَعْوَتِي لِلِقَاكَ شَوْقاً وَكَانَ فِرَاقُنَا وَصْلاً وَهَادِي
عَلامَ تُحُضِّنُنِي زُفَاتُ خَطْوٍ تَهِيجُ نَشِيدَتِي صَمْتاً وَشَادِي
ألَمْ يَتَوَارَ فِي النُّسَّاكِ شَجْوٌ! وَكَمْ تَتَجَاهَلُ الخُطُوَاتُ حَادِي
وَرَاوِيَةٍ يَعِيشُ الشِّعْرَ يَشْرِي سَرَاباً فِي القَصِيدِ وَفِي العِبَادِ
كَأنَّ نُجُومَهُ اشْتَمَلَتْ بِلَيْلٍ يَنِثُّ الحُسْنَ،تَشْنَقِعُ فِي السَّوَادِ!
إذَا السَّمْحُ اللِّسَانُ أشَاعَ عِشْقاً وشَفَّ الشَّوْقُ عَنْ شَجَنٍ يُنَادِي
تَبَدَّى فِي شَقَاءِ الحَرْفِ نَصٌّ بَلِيغُ الوَطْءِ يَسْرِي فِي النَّوَادِي
فَلَفَّ رُوَايَتِي فِي الشِّعْرِ شَكٌّ كَقَدِّ النَّارِ يَرْقُصُ فِي الفُؤَادِ
كَأنَّ النُّورَ شَبَّ يُسِرُّ سِرًّا وَبَشَّ البَوْحُ يُسْلِمُنِي مِدَادِي
فَخُنْتُ رِوَايَتِي وكَتَبْتُ شِعْراً أعَادِي القَومَ أحْلُبُ فِي الرَّمَادِ!

الدَقائِقُ الخَمْس:

للشاعر

- لكِ صِفَةُ اليَنابيع يَكشِفُكِ العَطش (1987) دار الواحة& حليبُ الرَّماد (1994) دار صاعد& مِن حَدِيثِ الدَّائِرَة "دراما شعرية" (1994) دار صاعد & أسْفارٌ مِن نُبُوءةِ المَوْتِ المُخْبَأ (1997) هيئة قصور الثقافة& سِيرَةُ المَاءِ (1998) مركز الحضارة العربية الرَّغام (2000) مركز الحضارة العربية& مُعْجَمُ الغَيْن (2001) الهيئة العامة للكتاب& النَّشِيدَة (2002) هيئة قصور الثقافة شَجن (2004) مركز الحضارة العربية. مُهْمَلٌ تَسْتَدِلّونَ عَليه بِظِلٍّ [2005].

- له عدد من الأعمال النقدية التي نُشِرَت بالعربية والإنجليزية منها: قراءات في اللاوعي الإبداعي، "الشعر نموذجاً"& الجرح والتعديل، الأنا بوصفها الآخر "دراسة ثقافية" &الشعرية المسرحية المعاصرة، "حول اتجاهات ما بعد الحداثة في العرض المسرحي"& النوع النووي "نحو بديل لنظرية النوع الأدبي"، "بالإنجليزية"& تجليات الأداء في

التراث المسرحي العربي قبل عام ١٨٤٧م "بالإنجليزية"& الشعر والأنتروبيا، "دراسة في الفوضى وعمل المصادفة"& التطهير المسرحي بين النظرية والأثر، "قراءة في شعرية بريخت المسرحية"، تجليات الأداء الكوميدية في التراث العربي وتأثيرها على المسرح التجاري المصري في السبعينيات "بالإنجليزية"& التعازي الشيعية، "مدخل أولي لتحليل سيميائي".

- له عدد من الترجمات الأدبية والنقدية منها: مشكلات المعرفة والحرية. "نوم تشومسكي"& الدراما بوصفها نوعاً وأنماطها."بيتشي تاماش"& الشعر المجري المعاصر، شعراء السبعينيات.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www.maktabetelosra..org
E-mail:info@egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٢٤٣ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9706 -8